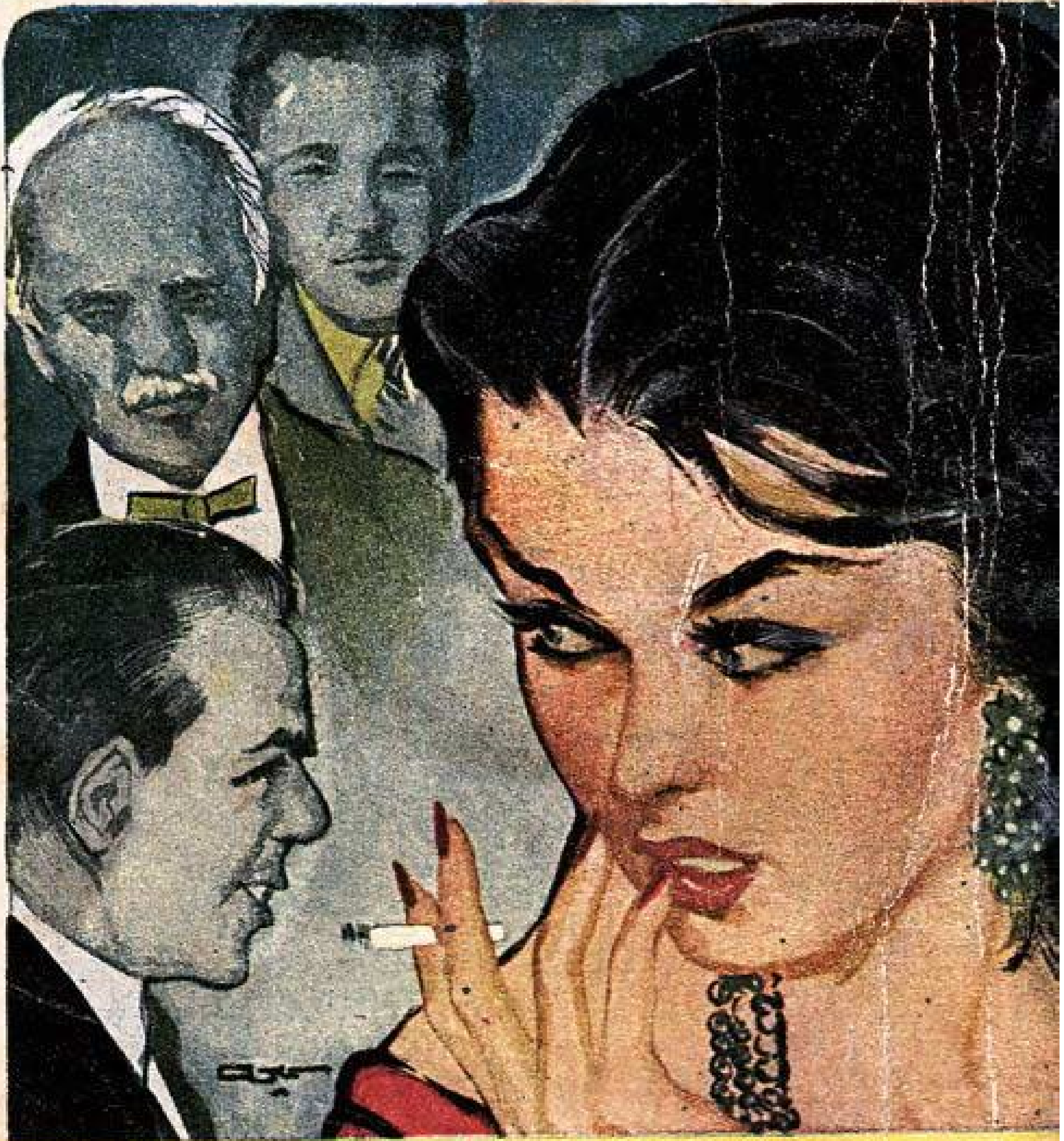
عذراء وثلاثة رجال

چيمس هيلتون



روايات الهلال

٨ قروش

روائع القصص العالمى

عذراء وثلاثة رجال

جيمس هيلتون

ترجمة

نظمي لوقا

دار الهلال

مؤلف الرواية

مؤلف هذه الرواية كاتب انجليزى معاصر فى الخامسة والخمسين من عمره اذ كانت ولادته فى لانكشاير ـ وهى مقاطعة انجليزية ـ فى سنة ١٩٠٠ للميلاد

وقد تلقى جيمس هيلتون تعليمه الجامعى فى جامعة من اعرق الجامعات الانجليزية ، وهى جامعة كمبريدج . وكان ملحوظ التفوق والالمعية فى مدة الدراسة . وهو من هذا الوجه يعتبر شبيها ببطل قصته « كونواى »

وبلغ من نبوغه أن جريدة المانشستر جارديان قبلت نشر أعماله وهو بعد طالب بالجامعة ، ومنحته عنها أجرا . وذلك تقدير غير قليل ، اذا علمنا أن المانشستر جارديان ليست جريدة محلية تنسب الى مانشستر فحسب ، بل هى من أكثر الصحف البريطانية العامة اعتبارا واوسعها انتشارا

ومن باب المانشستر جارديان دخل جيمس هيلتون باب الصحافة والادب . وكان عمله فى الصحافة الادبية ملحوظا من القراء والنقاد ، اذ عهدت اليه الديلى تلغراف فيما بعد بمهمة محرر النقد الادبى للروايات . وهى وظيفة لا يعهد بها فى الصحف البريطانية المحترمة الا لمن رسخت اقدامهم فى الفن الادبى ، واستقرت الثقة باذواقهم وحسن وزنهم للانتاج الادبى المستفيض فى تلك البلاد

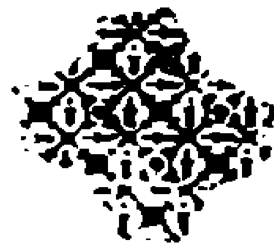
ونستطيع أن نعرف مقدار الحرج الذى كان من الممكن ان يقع فيه المؤلف وهو يعمل ناقدا أدبيا فى الصحف الكبرى ، اذا قدرنا انه هو نفسه من مؤلفى القصص . فهو يعرف ذلك الفن معرفة من اصطلى بنار الانتاج ، لا معرفة المترف المتفرج . وقديما قيل ان النقد يسير هين ، اما الانتاج فعسير شاق . ومؤلفنا قد عرف العلمين ، فلا يمكن ان يرمى بتلك . ولكن يمكن اتهامه بالتعصب لمدرسة معينة فى الادب الروائى مثلا ...

وهذا ايضا كان جيمس هيلتون بريئا منه ، والا لما نجح فى النقد الادبى . وقد استمر يعمل فى ميدانه سنوات عديدة الى ان تفرغ لكتابة القصص بعد ذيوع شهرته فيها ذيوعا عظيما ...

ولقد سبق لسلسلة روايات الهلال ان اصدرت لهذا الكاتب رواية « الافق الضائع » فى نوفمبر ١٩٥٥ التى اعتبرت من الدعائم القوية التى قامت عليها شهرته العالمية ، وضربت فى توزيعها ارقاما قياسية فى امريكا وانجلترا على السواء . ومن ثم اقبلت عليها شركات السينما ، واخرجتها على الستار الفضى ، كما اخرجت روايته الاخرى « وداعا مستر شبس »

واليوم نقدم لهذا القصصى البارع هذه القصة الممتعة « عذراء وثلاثة رجال » ، وهى كغيرها من روايات هذا الاديب القصاص العالمى . تستحوذ على لب القارىء منذ بدايتها حتى نهايتها . وقد استطاع جيمس هيلتون ان يحلل فى هذه الرواية الشائقة شخصيات الرواية تحليلا دقيقا ، وان يكشف عن اعمق اعماق العواطف البشرية

ومنذ سنة ١٩٣٥ استقر جيمس هيلتون فى امريكا ، واحترف كتابة القصص السينمائى لعاصمة الشاشة الفضية « هوليوود »



أشخاص الرواية

• فرينشام Frensham : ثرى من محبى المغامرات جمع ثروته من المشروعات المالية الناشئة ومن المناجم والمضاربات

• مارجريت Margaret : ابنته . ذات تفكير هادىء وصلابة وطباعها أقرب لطباع الرجال

• بومى (بوميروى) Pommy : ابنه . طيب كثير الاعتماد على غيره . ضعيف البنية فى صباه . موظف دبلوماسى

• ليلى Lolla : ابنته الصغرى . جميلة عادية الذكاء محبة للهو ومفتونة بالتبرج

• اوين بينجلى Owen Bingley : رجل اعمال استغلالى من غلاة المحافظين قوى الشخصية محب للسيطرة وضد كل حقوق الطبقة العاملة . زوج ليلى

• بولين بريثويت Pauline Braithwite : من الطبقة العاملة . ممرضة متطوعة فى المستشفى العسكرى . لزوجها بومى

• لوفل Lovell : صانع نابغ ومخترع مكافح

• كارول Carroll : جندى أمريكى فنان

• فرجيسون Fergusson : طبيب الاسرة

• دارنت Darrent سائق وسائس

• مينشن Minchin : ساقى الاسرة العجوز

الفصل الأول

أسبوع

مامن شك فى ان ذلك الاسبوع كان اسبوعا يستحق أن يوصف بالجمال والروعة . وكانت مرجريت يومئذ توشك ان تبلغ الحادية والعشرين من عمرها وهى متوجهة فى العربة التى تجرها الجياد المطهمة الى محطة بادينجتون بعد ان اتمت اول زيارة لها لمدينة لندن وخامر مارجريت الاحساس بأن هذا الاسبوع الجميل لم يكن ينقصه شىء اللهم الا ان يكون معهما يومى . فلو تم ذلك لكانت الروعة بالغة حد الكمال

وكان العبير اللطيف المنبعث من سيجار مرافقها يتسلل عبر العربة الى وجهها وانفها . وكلما رمقته بنظرة جانبية من عينيها ، طالعتها من وجهة نظره الرضا الذى يوشك ان يمسى تيها وزهوا . فالحق انهما نعما طيلة هذا الاسبوع بتمضية وقت طيب هنىء

ومرت العربة امام دار مدام تيسو ، فتذكرت مارجريت كيف استولت عليها الدهشة البالغة ، بل كيف اخذت عندما اكتشفت ذلك الشبه الشديد بين القاتل وينرايت وبين الشاعر لورد تنيسون . ولكن لندن مدينة حافلة بالاعاجيب والمدهشات . . .

وكانت مارجريت جالسة وقامتها منتصبة انتصابا كاملا ، وعقلها يقظان يقظة كاملة كذلك والعربة تدرج بهما ، وقبعتها ذات الحافة العريضة مائلة الى الامام فوق كتلة من شعر احمر نحاسى غزير ، ومن تحتها عينان عسليتان وبشرة وجه تركت فيها اشعة الشمس اثرا قويا . فلولا حمرة الشعر وصلابة الفك لظن الناظر انه ازاء فتاة تجرى فى عروقها دماء اهل الجنوب

ولم تكن تتكلم الا قليلا . ولكن صوتها العريض الغنى فيه مرونة

تكفل له القدرة على الارتفاع فوق لغط الثرثرة فى حجرة حافلة ، كما تكفل له القدرة على التسلل الى الاذن فى طبقة الهمس وسط تلك الضجة . وعلى الجملة كان كيم فرينشام راضيا كل الرضا عن الاثر الذى تركته ما رجريت فى دوائر لندن

ولكن الشيء الذى فاته ان يفكر فيه هو الاثر الذى تركه هو فى نفس ما رجريت بالذات ...

فعلى طول الطريق الى بادينجتون كانت مارجريت مستغرقة فى تقليب مشكلة جديدة ، هى مشكلة تلك الحياة « الاخرى » المذهلة التى سمح لها والدها أن تلقى عليها نظرة خاطفة . وزادت دهشتها كثيرا وهى تحاول الان ان تلقى نظرة شاملة تسترجع بها ذلك الاسبوع كله جملة

ولو ان بومى كان معها لوجدت شخصا تتحدث اليه عن ذلك الامر . اما الان وهى وحدها فليس امامها الا ان تقلب الخواطر وتعيد تقليبها فى ذهنها الحائر

لقد كانت تعلم بالطبع ان والدها كان طول حياته معدودا بين الاثرياء . وانه بلا ريب ذو أصدقاء كثيرين لم تكن تعلم عنهم شيئا . ولكن مع هذا اذهلها ذلك الاستقبال الذى تلقتها به دوائر المجتمع اللندنى . ففى كل قاعة استقبال ، وفى كل ملعب من ملاعب التمثيل ، بل فى كل ركن تقريبا من اركان الشوارع الكبرى كان الكل يهتفون به :

ــ مرحى ! اهلا بك يا كيم !

ولم تكن تعرف هذه الكنية لوالدها قبل هذا الاسبوع . فراى لذلك انه ينبغى ان يوضح لها الامر :

ــ أطلقوا على هذه الكنية لاننى منذ بضع سنوات جنيت شيئا من الثراء عن طريق استثمارات فى كيمبرلى ... فهناك مناجم الماس كما تعلمين

بيد انهذا التوضيح لم يقلل من دهشتها وحيرتها . كانت مندهشة لان هذا الرجل الذى كان يتحدث على سجيته التامة مع الفلاحين فى الحقل او فى الجرن ، يتكلم على سجيته التامة ايضا وبنفس الاسلوب الى الدوقات على مائدة العشاء

ومهما يكن من شيء فهي تشعر بالسعادة بعودته الان معها الى اولئك الفلاحين والى الحقول والاجران . فلما سالها والعربة تدرج بهما فوق بلاط الشارع قرب المحطة :

ـ آسفة انت على مغادرة لندن يا مارجريت ؟

هزت راسها هزة يسيرة جدا كانها في شك من اسفها على الانتهاء من تلك الرحلة السحرية . واستطرد والدها يقول :

ـ لقد فكرت فى ان اتخذ لى بيتا فى لندن فى السنة القادمة

فسالته بشيء من الدهشة :

ـ بيتا لنا كلنا ؟

ـ لكل من استطاع او شاء الحضور . وربما استطاع يومى ان ياتى الى ذلك البيت فى فترات الزيارة . وسياتى على كل حال ثلاثة اشخاص هم انت وليلى وامكما ...

فقالت بتحفظ :

ـ هذا اذا قررت امى المجيء

ـ آه . نعم . يجب ان نبذل جهدنا فى اقناعها . فقد يجدى عليها تبديل الهواء . وانت تعلمين انى دعوتها للمجيء معنا هذه المرة ، ولكنها اجابتنى بانى لم اعرفها بتلك الرغبة قبل السفر بوقت يكفيها للتاهب له . ولذا بقيت فى الدار

فهزت مارجريت راسها هزة من تدرك الظروف وتقدرها . واعتصمت بالصمت الى ان دخلت العربة فناء المحطة . وقفز الاب هابطا الى الارض ، ثم اعانها على النزول . فشعرت عندئذ بما كانت تشعر به دواما فى الامكنة المزدحمة من زهو شديد لوجودها معه . فهو فارع الطول ، ضخم القامة ، وسيم اسمر الوجه ، تزينه سالفتان بلون رمال الشاطيء . وكل حركاته وتصرفاته توحى بالعظمة والابهة وازهتها سخاوته فكانه امير من الامراء فى عطيته الكريمة للحوذى ، وفى امره للحمال بان يذهب بالحقائب الى القطار المسافر صوب شيبنج نورتون . وبلغ زهوها وافتخارها به غايته حتى لقد طفرت الدموع فعلا الى عينيها وهو ياخذ بيدها معتمدا على ذراعه مخترقا بها فناء المحطة

ولما اقتربا من كشك الصحف والكتب وضع فى يدها نصف جنيه

ذهبا وقال لها :

ـ اشترى لنفسك شيئا تقرأينه فى الطريق ، لاننى قد لا استطيع ان اتحدث اليك كثيرا اثناء الرحلة . فقد رتبت الامر بحيث يقابلنى هنا رجل ليسافر معنا ، ويقضى فى بيتنا بضعة ايام . رجل اسمه مستر لوفل ...

وبعد ساعة من الزمن كانت تحملق والوسن يداعب جفنيها من خلال النافذة ، وقد أخذ القطار يقترب من ريدينج . وفوق ركبتيها مجلة ذات غلاف ازرق تضم موضوعات جيدة . ولكنها اسفت لانها لم تجد فيها قصة من تلك القصص المدهشة التى يقوم بالبطولة فيها شارلوك هولمز ...

ولا شك فى انهم سيضطرون لتغيير القطار فى محطة شيبنج نورتون . ولكن ذلك افضل على كل حال من الاستمرار فى اختراق مقاطعة جلوستر . وكم يكون بديعا ورائعا لو أمكن الطيران فى الهواء بواسطة آلة من الآلات . . ففى المجلة مقال عن شىء من هذا القبيل . وزعم كاتب المقال ان انسانا ما افلح فى تحقيق هذا الحلم فى مكان ما بامريكا !

وبين الحين والحين كان يطرق سمعها عاليا فوق ضجة القطار صوت والدها العميق الرنان المرح :

ـ ولكن يا عزيزى لوفل ... خذ بالك ... أسمح لى لحظة واحدة أن اراجعك فيما قلت الان ...

وكانت للرجل الغريب طريقة خاصة فيها ثقة وحماسة وهو يقول :

ـ اؤكد لك يامستر فرينشام ... انا متاكد ... انا واثق ...

وكان أكبر منها . لقد قدرت له عمرا يقرب من الخمسة والعشرين عاما

ولم تكد تحدث فترة صمت بين احاديث الرجلين المتصلة ، الى أن آن للثلاثة ان يغادروا القطار كى يركبوا قطارا جانبيا بطيئا . وعندئذ التفت اليها والدها ، وابدى لها عن أمله ألا تكون أحاديثه المتصلة مع ضيفه الشاب قد اضجرتها . فابتسمت واجابته انها فى الحقيقة لم تكن مصغية باى وجه من الاوجه الى مايقولان . فانفجر الاب

ضاحكا بصوت مرتفع وهو يدس ذراعيه فى ذراعيهما ليسيروا على طول رصيف المحطة وقال للشاب :

ـ لعمرى يالوفل هذه تحية لك ! فهذه السيدة الشابة لم تعرك سمعها ! وهذا ميزان نزيه لقيمة افكارك !

فاحمر وجه الشاب احمرارا شديدا ونظر اليها ـ فيما خيل اليها ـ بشىء من التوسل . وعندئذ اشار ابوها الى القطار الذى كان عليهم ان يستقلوه وقال لها :

ـ هذا يامارجريت شىء ربما طاب لك ان تعلمى انه صار من مخلفات الماضى . لقد اصبح البخار مقضيا عليه . وفى مدى عشر سنوات سنكون جميعا راكبين قاطرات تسير بالبترول نمخر بها الشوارع والطرقات !

فهتف الشاب متحمسا :

ـ سيحدث هذا حقا يامستر فرينشام ! انا على يقين من هذا !

وكانت هذه اول مرة تتفحصه فيها بنظرها وحواسها تفحصا دقيقا واعيا . فاذا به طويل عريض الكتفين . وعيناه حالكتا السواد ، لامعتان بوميض خاطف تكاد حماستهما ترمى بالشرر . وكانت سحنته كلها تدل على صفة واحدة تنم عنه هى اللهفة

واستطرد الوالد يقول وهم يدخلون مقصورة فى القطار البطىء :

ـ هيا الآن يالوفل اتمم كلامك . فانا على تمام الاستعداد للاصغاء، حتى ولو لم تكن مارجريت مستعدة لذلك . ولعلك قادر ان تقنعنى ان انت بذلت فى ذلك جهدا كافيا . فانا على كل حال مهتم بالموضوع اهتماما فوق المألوف . استمر اذن فى عرض الفكرة ياولدى ... هيا !

واستانفا الكلام والمناقشة والمجادلة والافتراض الى أن توقف القطار فى محطة جانبية صغيرة . وكان الظلام قد اخذ يقترب ، فخيمت عتمة الغسق . ولما نزلوا وجدوا فى انتظارهم دارنت فى العربة الكبيرة ، تعبث يده بقبعته وهو يتقدم لحمل الحقائب . وقد شدت الى العربة فرسان بيضاوان تعرفهما جيدا ، فاحداهما طبق القشدة والاخرى زهرة الحقل . وكانت صورة العربة وفرساها وسائقها كافية لابراز احساس مفاجىء لديها هو الاحساس بالوطن

... الموطن بكل ما يكتنفه من اعزاز وحنين وجمال ، لا يشاركه فيه اى موضع آخر

وسالته مارجريت :

ـ هل امى بخير يادارنت ؟

واجابها الرجل بلهجته الاقليمية الظاهرة التى تنسبه عند سامعه على الفور الى اقليم جلوستر شاير :

ـ على حالها المألوف يا آنسة

وبعدئذ انطلقت العربة بثلاثتهم . وكانت مارجريت أثناء خبب الفرسين مدى الاميال الخمسة ، لتمنى بينها وبين نفسها الا يتخذ ابوها ذلك البيت الذى حدثها عنه فى لندن . لانها شعرت برغبتها التامة عن مفارقة هذا الاقليم ، الذى تسفيه الرياح وتراوحه بما فيه من وديان منعزلة ، وتلال علوية تختلف الوانها بين الخضرة والحمرة ، وحيث ايما رجل مر بهم على الطريق يلمس قبعته ، لا لمسة الذلة والزلفى ، بل عن سرور قلبى بمطالعة وجهها ووجه ابيها الاثير لديه ...

ولما طامنت الفرسان من ركضهما الى ضرب من الخبب عند المنحنى الكبير ، ظهرت الدار العتيقة لعينيها ، فالقت مارجريت نظرة ثاقبة على لوفل ، لانه خيل اليها ان العقل يمنع ان يرى انسان تلك الدار من غير ان يطلق صيحة اعجاب

وهتفت وهى تشير الى رسم الدار من بعيد :

ـ هاى ستاو ! ان ستاو فى الواقع هو اسم ذلك التل الذى تراه هناك وفوق قمته هذا البرج . ولكننا نسمى الدار ايضا هاى ستاو !

وكانت الدار قائمة وراء وهدة الوادى على مرتفع قليل فى الارض ، ومن ورائها انتشرت التلال وقد ارتسمت معالمها بوضوح خلال اشعة الغروب الاخيرة ، وكانت تلك الدار بناء مربعا متين المنظر مشيدا من صخور رمادية اللون ، ترى بكثرة فى تلال تلك المنطقة . وكانت فى الاصل بيتا ريفيا كبيرا بعض الشىء ثم اضاف اليها المالكون بعد المالكين اجنحة واروقة بغير نظر الى التناسق المعمارى ، فجاء الشكل النهائى غير خال من جاذبية مصدرها الطرافة

وموقع الدار رائع ولاشك . ونبدو على بعد كبير للناظر جمال حدائقها التى تشرف من ارتفاعها القليل على بطن الوادى وقد رصعت اكنافها بالوان ناصعة رائعة يمثل كل لون منها حوضا كبيرا من احواض زهور الصيف

وابتسم كيم فرينشام لما ابدته ابنته من حماسة لمسقط راسها وقال :

ــ هذا هو مسكنى الصغير يالوفل . وهو ليس دارا عريقة توارثها الآباء عن الاجداد . فانا لم امتلكها الا منذ اكثر قليلا من عشرين سنة

وما ان استقبلهم مينشن فى البهو حتى ابتدرته مارجريت بذلك السؤال عينه الذى وجهته من قبل الى الحوذى دارنت . وتنهد مينشن وهو يحمل الحقائب واجابها تلك الاجابة بعينها :

ــ ليس هناك تغيير يذكر يا آنسة مارجريت . فقد عاودتها آلام الروماتيزم ، ولكنى الاحظ دائما أن وطاة تلك الآلام تشتد مع ظهور كل هلال

هلال جديد ؟ وهل ظهر فى السماء الهلال ؟ لقد فاتها أن تلاحظ ذلك وهذا بلا ريب احد الاشياء التى يفوت الناس ان يفطنوا اليها فى لندن . . .

ولما قاد مينشن الضيف لوفل الى حجرته التى سينزل بها فى الدار صعدت مارجريت مع ابيها الى الطابق العلوى . وكان هذا الصعود هو الرحلة المعتادة كلما عادا الى الدار من الخارج ، حتى ولو كان خروجهما لجولة صباحية بين خمائل الحديقة . فما ان يدخلا عتبة الدار وتقع عيونهما على الدرج الكبير حتى يقول هو او تقول هى :

ــ اوه . ينبغى أن نصعد الآن لنرى كيف حال ماما . . .

وكانت هى التى قالت ذلك فى هذه المرة ، ودخل الاثنان عليها معا ، فاخترقا عرض البساط الشرقى السميك حتى مثلا أمام الفراش الضخم المصنوع من خشب الموجنة ، باعمدته الاربعة وزخارفه المنقوشة بالحفر فى ذلك الخشب الثمين ، وستائره القرمزيه الحمراء المطرزة بطنف من القصب واسلاك الفضة

اجل كانت امها فى فراشها حيث كانت تتوقع ان تجدها ، وكانت هناك شمعتان كبيرتان مركبتين فى شمعدانين عاليين من الفضة الخالصة ، تلقيان ضوءا مرتعشا فوق جبل صغير من الوسائد الكبيرة والصغيرة . ووسط هذا الجبل ارتسم وجه امراة يتميز بصغره غير المألوف ودقة ملامحه . وكان الراس والشعر مغطيين بطاقية من المخرمات المالطية الفاخرة ، تبدو من تحتها العينان ينبعث منهما وميض ثاقب ثابت مستقيم . وميض ورثته مارجريت ولكنها ورثته مع زيادة فى النفاذ والدقة وقوة الوقع فى النفس

وارتفع من بين الوسائد صوت رفيع يسال بهدوء :

ـ اذن قد عدتما ؟

ـ نعم يا اماه

ـ وكيف وجدت لندن ؟

ـ رائعة اشد الروعة

ـ هذا ماقدرت ان يكون عليه رايك . الم تاتيا معكما باحد من هناك ؟

فتدخل الاب فى الحديث ، وقال :

ـ اتينا بصديق لى اسمه لوفل . ومن المرجح انه يمكث معنا بضعة ايام

ـ آه .. فقد خيل الى انى سمعت صوتا غريبا يتحدث الى مينشن فى البهو ... فلى اذنان مرهفتان ... وفى ذلك تعويض لى عن ساقى الواهنتين فيما اعتقد !

وسرعان مادق بعد ذلك الطبل الهندى الذى يقرع ايذانا بالعشاء ، فخرج الاثنان من مخدع الام المريضة . وفيما هما يهبطان الدرج قالت مارجريت :

ـ يخيل الى احيانا انه ربما كان من الخير لها ان تنهض من فراشها ، وتحاول القيام باى نوع من النشاط العادى

واجابها أبوها وهو يعقد ذراعه فجأة بذراعها :

ـ وهذا ماطالما الح عليه الاطباء منذ زمن بعيد !

وكانت وجبة العشاء مرحة خفيفة الروح ، مع ان الجالسين الى المائدة لم يكونوا اكثر من ثلاثة . واتيحت الفرصة لمارجريت كى

تسمع بوضوح هذه المرة شيئا كافيا عن طبيعة زيارة لوفل ومن الغرض منها . فهو قد اخترع شيئا ، على ما فهمت من غضون الحديث ، وهذا الاختراع طراز محسن مهذب لآلة تدار بالبترول وهذه الآلة سيكتب لها على الاقل ان تحدث ثورة كاملة في جميع نظم النقل في سائر اقطار العالم

ولم يتحرج شخصيا في التصريح بذلك . وفطنت منذ اول وهلة الى قدرته الخارقة على عدوى سامعيه بتفاؤله الضخم . ويلوح ان بعض الناس كان الصلة بينه وبين ابيها ، على امل ان يقبل باعتباره رجلا من رجال المال ، او ربما باعتباره مقامرا مغامرا ، التكفل بهذه المغامرة . وكان من الواضح منذ الآن ان اباها شديد الاهتمام بهذا الموضوع الجديد

وسأل فرينشام ضيفه ان كانت هناك آلة تجريبية او نموذجية تمثل ذلك الاختراع الجديد في اى مكان . فقال له لوفل أن هذه الآلة التجريبية موجودة ، ولكنها غير تامة في الوقت الحاضر

— ولكن هل استطيع ان اراها ؟

— نعم بالتأكيد تستطيع ياسيدى ان تراها اذا شئت . وهى موجودة في برمنجهام وتحتاج الى عمل يستمر بضعة اسابيع ، قبل ان تعطى اداء لائقا يفى بالغرض

ثم كانما ضاق لوفل باسئلة ابيها على اعتدالها الواضح ، فانفجر قائلا :

— اسمع يامستر فرينشام . انى ارى بوضوح انك لا تريد ان تقدم على شىء من غير برهان عملى . فانت مسترِيب بطبيعتك . ولست الومك على هذا . ولكنى احب ان اقدم اليك فكرة عما لاقيته من مشاق في سبيل هذا الاختراع ، واخراجه الى حيز الوجود عمليا . فهناك اولا عقبة الافتقار الى المال الكافى . ولكن ادهى من هذا وامر انى كنت افتقر الى مكان مناسب للعمل . فالمكان الذى كان تحت يدى عبارة عن حجرة صغيرة يكاد حجمها لا يتجاوز حجم صوان الملابس الموجود في بيتك ! ولم يكن تحت يدى طريق استطيع ان استخدمه لاجراء الاختبارات . فلابد ان يكون الطريق منعزلا . فلو اخرجت آلتى في اى مكان قرب برمنجهام ، لتجمع حولى في مدى

دقيقتين خلق كثير

لقد كنت طوال الوقت أقاوم التيار من جميع الوجوه . ولايمكن ان تكون لديك فكرة عن مثل هذا العناء . .

فقاطعه فرينشام قائلا بهدوء :

ــ لقد جربت فى حياتى السباحة ضد التيار فى ظروف كثيرة . . . هذا اذن هو السبب الذى حال دون وجود ثمرة محددة لفكرتك تطلعنى عليها . انى استطيع أن ادرك هذا واقدره تماما . ومهما يكن من شيء ، ففى استطاعتك اذا كان المكان المناسب عائقا جديا ، ان تحضر آلتك الى هنا كى تفرغ منها وتتم انشاءها ؟ وبين الاراضى المملوكة لى عدة اميال من الطرق الخصوصية التى لن يتجمع فيها الخلق مهما بدا لك أن تصنع . . .

وبعد فترة صمت طويلة غمغم لوفل قائلا :

ــ انى مدين لك باعظم الامتنان يامستر فرينشام . وساحضر آلتى الى هنا فذلك العرض الكريم من جانبك سيسهل لى جانبا كبيرا من المصاعب . وأن لم يكن لديك مانع فانى استاذنك فى السفر الى برمنجهام فى بكرة صباح غد ، كى اقوم بالتمهيدات والترتيبات الضرورية لوصول ادواتى الى هنا . ولن تطول المدة بعد ذلك فى العمل . فمتى بدأت فيه لم يستغرق منى اتمامه اكثر من عشرة ايام ، او ربما كان اسبوع واحد كافيا أذا حالفنى الحظ . وعندئذ . . وعندئذ سترى بنفسك اننى كنت أعنى بحق كل حرف قلته لك . وسوف تقتنع بوجهة نظرى . انا واثق من ذلك . . . وعلى يقين جازم !

فابتسم فرينشام ابتسامة من خبر الدنيا وعلمته التسامح مع المتحمسين وقال له :

ــ ليكن . وسوف يقوم دارنت بتوصيلك فى العربة الى شلتنهام غدا صباحا فى موعد يسمح لك بركوب قطار برمنجهام السريع من هناك . والآن ان كنت تشعر بمثل ما اشعر به من الاجهاد ، فلنذهب الى مخادعنا لنلتمس فى أحضان النوم راحة من عناء

الفصل الثاني

رحلة

وفي صباح اليوم التالي تولت مارجريت بنفسها قيادة العربة الصغيرة لتوصيل لوفل الى شلتنهام . وكان المفروض ان يقوم دارنت بهذا العمل كما قال والدها بالامس . لولا أن أمها نبتت لديها الرغبة على حين غرة في التجول بين ازهار الحديقة . وتجوالها منذ مرضت مرضها هذا الطويل كان دائما في مقعد ذي عجلات . وهي لا تعهد بمهمة دفع المقعد الا الى دارنت . وهكذا اصبح على عاتق مارجريت ان تقود المركبة الصغيرة حاملة الضيف الشاب ليلحق القطار

ولم تكن مارجريت لتبالي هذه المهمة فهي تحب القيادة . ثم انها ستجد الفرصة سانحةأمامها لقضاء حاجات شتى فيبلدة شلتنهام فهذه البلدة حافلة بالحوانيت والناس . وهي من جهة ثالثة تحب أن تقوم باطلاع الغرباء على معالم المنطقة ، وان ترشدهم الى المناظر الجميلة والبقاع الطريفة ، وان تنقل اليهم ان استطاعت شيئا من تلك الحماسة العميقة المسارب في نفسها لذلك الريف الحبيب اليها

ولكن هذا الغرض الاخير لم يكن من اليسير عليها تحقيقه هذا الصباح وهي في صحبة لوفل . لانه كان في شغل عن حماستها بما لديه من حماسة شديدة لمشروعاته . وقد فطنت الى ذلك بعد ان تلقت منه اجابات مقتضبة يسيرة ، تعليقا على ملاحظاتها بصدد المناظر والمشاهد التي يمران بها ، فقالت له بصراحة :

ـ اعتقد انك لا تهتم كثيرا ولا قليلا بهذا كله !

ـ بل اهتم يا آنسة فرينشام كثيرا بما تطلعينني عليه من المشاهد الجميلة ، وان كنت مشغولا في أعماق نفسي بامور اخرى .

فلا تظنى انى غير مستمتع بما حولى من جمال . انه ليروقنى ... كثيرا جدا . بل انى اكاد اجن من فرط السعادة . فلم يسبق لى ان شعرت بمثل هذه السعادة فى حياتى كلها ...

ـ لماذا ؟

فزاد التفاته نحوها وقال :

ـ لانى اعلم اننى بعد وقت وجيز جدا سانتهى من اقناعى لوالدك بتبنى اختراعى الجديد ...

ـ حدثنى عنه ... بالفاظ وعبارات فى مقدورى أن افهمها

وكان هذا هو الموضوع الذى يطيب له ان يخوض فيه . ومتى بدأ تدفق الكلام من فمه فلا يكون ثمة سبيل الى وقفه . ووجد لزاما عليه فى هذا الصدد ان يعود بها الى البداية ، ويصور لها طفولته الاولى وصباه فى البيت وفى المدرسة ...

وكان لوفل من أهل الاقاليم الوسطى ووالده رئيس عمال فى مصهر وهو شخصيا كان صبيا يتعلم صنعة نفخ الزجاج فى احد المصانع ، وظل مثابرا على هذه المهنة حتى سن السابعة عشرة ، وفى تلك السن ضاق ذرعا بهذه المهنة التى تخنق اطماعه العريضة ، فقاده طموحه الى دراسة هندسة الآلات ، ومنذ ذلك الحين وهو يكافح فى هذا الميدان حتى الوقت الحاضر . وقد بلغ الآن السابعة والعشرين ...

ـ ... وفى هذه السنوات العشر ما اكثر الليالى التى بتها على الطوى ، لاشترى بثمن طعامى اداة باهظة الثمن لا غنى لى فى ابحاثى منها . وكنت استيقظ كل يوم فى الرابعة صباحا ، لاعمل فى تجاربى الهندسية قبل أن اتوجه الى عملى الرسمى فى مصنع الزجاج . فضيت هذه السنوات العشر فى كفاح قاس . ولكن اذا اعطيتنى عشر سنوات اخرى فانى زعيم لك ان تطبق شهرتى الآفاق . انا واثق ان هذا اليوم سيجىء حتما !

ولما وجدها لا تعلق على ذلك الكلام بشىء استطرد قائلا :

ـ اعلم انك تظنين بى الغرور والادعاء . وهذا ظن لفيف كبير من الناس بى . ولكن لا حيلة لى فى هذا . وشعورى بما اقول شعور صادق لا تزوير فيه ولا ادعاء . ثم لا تنسى اننى ما كنت لامضى فى كفاحى كما فعلت لو لم تكن لدى هذه الثقة الضخمة بنفسى

وكان ذلك النهار يبشر من بدايته بارتفاع الحرارة . فها هي ذي التلال وهما يقبلان على مشارف شلتنهام تتوارى عن الاعين وراء ضباب في لون اللبن . وعرضت عليه ان تلقاه بالعربة عند المحطة حين عودته في المساء . ولم تنسه حماسته ان يسالها على سنة المجاملة المهذبة :

ــ اليس في ذلك انتقال شديد عليك ؟

فاجابته قائلة :

ــ كلا ... فهذا اهون بكثير من العودة الآن الى الدار وارسال دارنت بالعربة بعد الظهر . وفي استطاعتي اذا قضيت النهار هنا ان انتقل بين الحوانيت عسى ان اجد شيئا احب ان اقتنيه . ولي اخت اصغر مني اسمها ليلى تطلب العلم في مدرسة هنا . فلن يثقل على قضاء سحابة النهار على وجه ممتع . اؤكد لك هذا

وبعد ان ركب قطاره السريع ذهبت بالعربة والجواد الى احد الاسطبلات ، ثم اخذت تتمشى في الشارع الرئيسي الذي يمتاز بعقود من البناء على جانبيه تتيح ظلا رطيبا تحت اقواسها . وذكرتها واجهات الحوانيت بحوانيت لندن وواجهاتها ،وصعب عليها ان تصدق انها كانت هناك منذ اربع وعشرين ساعة فقط . فان كل ابهة ذلك الاسبوع الرائع ، وذلك الحشد الهائل من التزاويق والزخارف ، بل ومنظر الملكة فيكتوريا العجوز المسكينة في عربتها الملكية الفخمة ... كل هذا قد بهت واصبح من مخزونات ماض لا تكاد تتبينه العين

وبعد الظهر توجهت لزيارة ليلى في مدرسة خصوصية راقية لبنات الاسر الكبيرة عند مشارف المدينة . وهي بعينها المدرسة التي تلقت هي نفسها دروسها فيها منذ سنوات . والحق انها كانت تلميذة صعبة المراس ، لقيت المعلمات عناء شديدا في حملها على احترام النظام والمثابرة على الدرس . ووجدن عناء اشد في حملها على الاقلاع عن عاداتها المثيرة لاستنكارهن الشديد . فقد كانت ولم تزل تمشي مشية الرجال ، وتحدق تحديقا ثابتا قاسيا في الغرباء ، ولا تبالي ان تبدي رايها الصريح في شيء !

اما ليلى فهي على خلافها في كثير جدا من الصفات . فهي ظاهرة الانوثة بصورة ترضي معلماتها العوانس ، ذات اسلوب دمث في التعبير

والسلوك والمشى . وهى ايضا اجمل بكثير من اختها الكبرى ، واكثر بشاشة وميلا للمزاح . وكانت الناظرة تقول عنها :

ـ ليلى فرينشام اجمل فتاة فى شلتنهام . ولو ان والدها قام بما ينبغى عليه نحوها لتزوجت زواجا مرموقا جدا !

وتلطفت الناظرة فسمحت للفتاتين بتناول الشاى معا . فوجدت مارجريت اختها ليلى مهتمة جدا بسماع ما ترويه لها عن مشاهداتها فى اسبوع اليوبيل الذهبى للملكة فى لندن . ولما فرغت مارجريت من روايتها ، مطت ليلى شفتيها وقالت :

ـ لم يحسن ابى صنعا اذ اخذك معه ولم يأخذنى . فانا واثقة انى كنت سأستمتع بذلك كله عشرة اضعاف استمتاعك . فانت دائما هادئة ولا اعتقد انه يمكن أن تهتز اعماقك استمتاعا بشىء . واعتقد ايضا انك راضية كل الرضا بمواصلة الحياة على الاسلوب القديم فى هاى ستاو . اليس كذلك يا مارجريت ؟

فاجابتها بكل هدوء :

ـ هذا صحيح . ولكنك فيما اعتقد لا تحبين كثيرا حياة الريف !

ـ بل انى امقتها

ـ اذن سيسعدك ان تسمعى منى أن والدنا يفكر فى اتخاذ بيت فى لندن فى الموسم القادم

فصفقت ليلى بيديها فى جذل شديد وصاحت :

ـ لندن ؟ لندن ! اوه يا مارجريت . هل هذا صحيح ؟ وستكون ثمة استقبالات ومراقص وارتياد للمسارح و . . .

ثم كفت عن الكلام فجاة وسالتها فى انتشاء :

ـ خبرينى بربك : الم تقع عيناك فى لندن على رجال ذوى وسامة وجمال ؟

ـ لم اجعل همى فى ذلك

ـ ولكن الم تقع عيناك على احد ؟

ـ لم ار هناك فيما اعتقد احدا يضارع ابى وسامة وجمالا

فهزت ليلى كتفيها فى استياء وقالت :

ـ اوه . انت كعادتك تحاولين الظهور بمظهر البراءة . . وانا اكره هذا ! اتعرفين ان هناك رجلا وسيما وسامة مدهشة واننا نراه

كل يوم تقريبا ... لانه يتمشى على طول الطريق خارج هذه المدرسة فى اوقات منتظمة جدا ؟ واظن انه نقيب فى فرقة الفرسان . وله اشهى عينين وشارب . ومنذ ايام كنت اطل من الشرفة فرآنى وابتسم ....



وبعد ساعة استقبلت مارجريت لوفل عند وصوله . وكانت روحه المعنوية لم تزل عالية . وكذلك كانت معنوياتها ايضا . ولكنهما لم يكترا فى رحلة العودة من الحديث مثلما اكثرا منه فى رحلة الذهاب . واطبقت العتمة عليهما قبل ان يصلا الى هاى‌ستاو بوقت طويل ، وظهر الهلال عاليا فى قبة السماء ، فبدت حقول الغلال المترامية كانها بحار من الفضة

وبعد فترة صمت طويل ساد بينهما قالت له :

ــ انك لم تزل تفكر فى اختراعك هذا ، اليس كذلك ؟

فقال بعد شيء من الروية :

ــ بَلى . افكر فيه ... وانت فيم تفكرين ؟

فاجابته ببساطة وَصراحة اذهلته :

ــ فيك انت !

وبعد يومين وصلت ادوات عمله من برمنجهام فى عدة صناديق كبيرة ، فانكب على العمل فورا بهمة ونشاط عظيمين . فكان يبدأ العمل عادة قبل الساعة السادسة من الصباح ، ويظل مثابرا عليه الى وقت العشاء ، باستثناء فترتين قصيرتين للافطار والغداء . وكان حريا أن يستمر فى العمل بعد العشاء ايضا لو أن فرينشام ترك له فرصة لذلك

وفى كل ليلة بعد تناول القهوة كان يدلى ببيان عن عمله فى ذلك اليوم ، فى لغة فنية حافلة بالاصطلاحات . فكان من العسير على مارجريت ووالدها أن يدركا على وجه الدقة مراده بالضبط . وكان وميض عينيه يزداد توقدا وهو يتحدث عما احرزه من تقدم فى يومه فكانت مارجريت تشعر أن بداخله حيوية تمده بقوة جلاية غريبة

وذات يوم اشتدت الحرارة حتى انه بعد الظهر وقع فريسة للجو الخانق ، فانهارت مقاومته وسقط بين ذراعيها وهى واقفة وراءه

ترغب ما يصنع . فاضطرت الى حمله بين يديها حملا بغير مساعدة من احد الى خارج العريشة ،وارقدته على ارض الفناء الداخلي لحجرة الالبان وحظيرة البقر . فلما افاق من الاغماء بعد ذلك ظهرت عليه دهشة بالغة وقال لها :

ـ لابد انك قوية قوة خارقة

فاجابته ببساطة قائلة :

ـ نعم . انا قوية جدا !

واحمر وجهها احمرارا شديدا تحت نظرة الاعجاب السافر التى طالعها بها ، ثم استطردت وانفاسها تلهث قليلا :

ـ لقد اسرفت على نفسك فى مواصلة العمل رغم حرارة الجو . ويجب عليك الان ان توقف العمل برهة ... على الاقل الى ان تلطف انفاس الهواء بعض الشىء

وكم ادهشها انه انقاد لرايها على الفور ، واجابها وهو مستمر فى التطلع اليها بذلك الاعجاب الصريح :

ـ ساعتبر نفسى فى اجازة طول يوم غد اذا شئت ذلك . وربما اذا كان الجو معتدلا ، واذا ... اذا تكرمت انت ذهبنا معا لتريني المواضع الطريفة فى هذه المنطقة . فانا واثق ان للطبيعة فى هذا المكان مكامن كثيرة للسحر والطرافة

وكانت مسرورة جدا لماتتوقعه فى تلك الرحلة من متعة . ومسرورة جدا لانه هو الذى اقترحها بادئا . وكم كان غريبا فى نظرها ايضا ان يعلق بهذه الدهشة على قوتها البدنية الفائقة . حتى انها الان فجاة شعرت بقوتها تربو وتزداد فى داخلها كانها نافورة يثور ماؤها بحيث احست بدمائها تضطرب بتلك القوة الفوارة فى عروقها

وواجهته بنظرات عينيها الثاقبة المستقيمة التى لا تعرف خوفا ولا ترددا ، وقالت بثبات :

ـ سنتجول فى انحاء التلال . ونتجاوز تل ستاو الى نورث ليدج لم نعود مخترقين تل ستاو مرة اخرى ...

ـ سنذهب حيثما راق لك الذهاب

ولاول مرة رات فى عينيه ذلك الوميض العجيب من غير ان يكون مثاره منصبا على آلته التى تدار بالبترول

وفى تلك الليلة دار حديث طويل بينها وبين والدها . فقد صعد الوالد الى حجرتها بعد أن أوت الى فراشها . ودار الحديث بينهما فى البداية حول لوفل . فقال :

ـ اخبرنى مينشن ان الحرارة كانت شديدة الوطأة حتى عجز صديقك عن احتمالها بعد الظهر . ولم يدهشنى هذا . فلا ينبغى ان لتركيه يفرط فى العمل فى هذا الحر ... وبهذه المناسبة ، ما رأيك فيه يا مارجريت ؟

ـ استلطفه

ـ ان فكرته عن نفسه فكرة رائعة كما تعلمين

ـ هذا صحيح

فابتسم وقال لها :

ـ انت طبعا لا يضيرك هذا ... ولكنى اخشى ان أمك تشعر فيما يبدو بنفور من نحوه

ـ لم اكن اعلم انها قابلته ولو مرة واحدة

ـ وهى فعلا لم تقابله . ولكنها فقط رأته من بعيد حينما كان دارنت يدفعها فى المقعد ذى العجلات بين مماشى الحديقة . ولكنها بالطبع كما تعلمين ذات بدوات خاصة . تكره أو تحب بغير أسباب

وسكت قليلا ثم قال فى اسى :

ـ ولا اظن ان حالتها الصحية آخذة فى التحسن ... ولو كنت أعرف ما الذى يمكن ان يدخل السرور عليها لما ادخرت فى سبيل ذلك وسعا ولا نفقة . فالواقع يا مارجريت اننى بدأت اشعر بالرغبة فى الاستقرار ، لاننى جمعت من المال ما اريد وطويت صفحة المغامرات من سجل حياتى . والبيت هو المكان المناسب لرجل فى مثل سنى . فانا الآن فى الرابعة والخمسين كما تعلمين . ولكن البيت ...

وقطع كلامه والقى اليها بنظرة خاطفة ثم قال :

ـ اظنك تعرفين ماذا اعنى

وردت على نظرته بنظرة فهم وعطف سريعة ولم تتكلم . فالموقف كله كان يبدو حافلا بالسخرية بحيث يصغر ازاءه كل تعليق ... فالمرأة التى تزوجت من رجل كأبيها ، لا تكترث فتيلا سواء جاء الى البيت أو غاب عنه الايام والاسابيع . وسواء أخذها معه فى أسفاره أو

خلفها وراءه . فلا تسأله اين هو ذاهب ولا من اين جاء . ولا ينغص الالم عذيرا لها في سقوط المبالاة ، ولكن فكرة الالم حملت مارجريت على ان تقول :

ـ اعتقد ان امي تعاني من الالام اكثر بكثير مما نتصور

فاجابها ابوها بحماسة :

ـ هذا ما كنت ميالا على الدوام الى اعتقاده ، ولكن الطبيب فرجيسون يؤكد لي دائما انها لا تشكو شيئا . وانما هي أعصابها . . ويؤكد لي ايضا انها لو جمعت امرها وحملت نفسها على مغادرة الفراش والاختلاط بالناس لتحسنت حالتها تحسنا عظيما . وما كنت لاقول لك هذا كله لولا ان ملاحظة لك منذ بضعة ايام دلتني على انك ستنتهين الى هذا الراى بنفسك

ـ وما القول في الروماتيزم ؟

ـ فرجيسون يقول ان هذا كله من تاثير الاعصاب ، ولكن لا تظني بالطبع انني أحاول التقليل من آلامها بهذا القول . . . فكل ما هناك انني اتمنى لو بذلت مجهودا صادقا للمقاومة . وانا مستعد للتضحية باي شيء في سبيل اذكاء اهتمامها باي نوع من أنواع الهواية او التسلية ، وكان هذا هو الدافع الاول لي على اتخاذ بيت في لندن . . .

واستطرد وهو يضع يده الكبيرة بحنان فائق فوق كتفها :

ـ لقد بذلت خير ما في وسعي في سبيل اقناعها فلم افلح . ولا ادري ان كان لك اى تاثير عليها . على كل حال ارجو ان تحاولي انت ايضا . وانت تعلمين طبعا ماذا اعني

فهزت راسها . وعاد الى وجهه الاشراق وهو يقبلها ويتركها لتنام ولكنها ظلت تفكر في امها ، ولم تفهم كيف امكن تلك الام الا تهتم بذلك الاب . واخذت تتنسم في الهواء رائحة الصابون والسيجار المعطر التي يتركها ذلك الاب الفخم وراءه حيثما يكون . فهو يتالق بالنظافة والوسامة والقوة ، حتى انه يبدو ملكا بين سائر من عرفتهم من الرجال . وخطر لها انه ربما كان في سنوات كفاحه الاولى شبيها بلوفل . وانه لو قدر للوفل النجاح لاضفى عليه ذلك بهاء شبيها ببهاء ابيها ورونقه . . .

الفصل الثالث

تحت المطر

انهمر المطر مدرارا فى صباح اليوم التالى فكان ذلك مثار ضحك كثير بينها وبين لوفل على مائدة الافطار . ولما جلسا فى قاعة الاستقبال حاولت ان توحى الى نفسها بانها تشعر بخيبة امل غير عادية . ونهضت الى المعزف فادت عليه قطعة موسيقية بطيئة الحركة هى سوناتا ضوء القمر ، وجاء هو فوقف معتمدا بمرفقيه على المعزف . وصح عندئذ بينها وبين نفسها وفى هدوء انها تستلطف هذا الشاب اكثر مما استلطفت اى شاب آخر فى حياتها كلها . ولاحظت فوق هذا ان وجوده لا يشعرها باى توتر عصبى ، بل انها على العكس تحسن العزف تحت نظراته اكثر من مالوف عادتها . ولما اتمت المقطوعة دارت بسرعة فوق المقعد الدوار ، ورفعت اليه وجهها بتحديقتها الصريح

واتجه مجتازا القاعة الى النافذة ، واخذ ينظر الى المطر المنهمر بلا انقطاع . وكان المنظر حينئذ رائعا ، وتربة الأرض والتلال تبدو وكانها تشرب الماء بشغف . والاشجار المثقلة بثمارها تهتز اعطافها وهى تتقبل منحة السماء . . .

وسمعته يقول من غير ان يحول نظره اليها :

ــ لشد ما احب المطر !

فقالت على الفور :

ــ انا لا احبه عندما يحول بيننا وبين الخروج

ــ وهل من الحتم ان يحول بيننا وبين الخروج ؟

وبعد بضع دقائق كانت تواجهه وهى مرتدية معطفها الابيض اللامع الواقى من المطر ، وتقدم اليه مظلة سوداء :

ـ هذا ماكنت اريد ان أقدم عليه ولكن لم يخطر ببالي انك تحب السير تحت المطر مثلي . . .

وبينما هما يسيران في هذه الوحدة تحت المطر حدث مرة او مرتين انه تناول ذراعها ليمينها . فكان يضغط عليها

وخفت حدة المطر برهة وهما يجتازان منعطف النهر ، ويخوضان اعشاب البرية موغلين نحو تل ستاو الكبير . وتل ستاو يبلغ ارتفاعه نحو ستمائة او سبعمائة قدم . وان كان يبدو اعلى من ذلك كثيرا ، عندما ينظر اليه الانسان من نوافذ الدار

واوحى اليهما تراخي شدة المطر ان يشرعا في الصعود . ولكن في منتصف المسافة عاد المطر الى الانهمار بشدة فاسرعا يجريان للاحتماء منا بين مجموعة من اشجار البلوط نابتة على نتوء في التل . وقالت له وهي تجذبه من يده :

ـ انا اعرف مكان هذه الاشجار جيدا ، وكثيرا ما كنت العب بينها انا وبومي ونحن طفلان

فسألها متعجبا :

ـ بومي ؟

ـ نعم بومي . انه اخي . واسمه الحقيقي بوم روى . ولكننا كلنا ناديه بومي . وكان منذ نشأته غير قوى البنية ، ولذا الحقه والدى بعمل في كاليفورنيا حيث المناخ معتدل دافيء . فهو في سان فرنسسكو في الوقت الحاضر ..في السلك القنصلي

ـ اظنكما كنتما لا تفترقان ؟

ـ كنا دائما معا . وكان اشقى وقت مر على في حياتي هو الفترة التي اعقبت رحيله . . .

واسرعت تخترق مسافة بين الاشجار . ثم اشارت الى جذع شجرة ضخمة رأتها هناك :

ـ انظر . هاهي ذى الحروف الاولى من اسمينا . نقشناها يوم عيد الميلاد الثامن لبومي بمدية تلقاها هدية في تلك المناسبة . ولا بد انى كنت يومئذ في الخامسة من عمرى . وتستطيع أن ترى بنفسك كم كنا صغيرين ، حتى ان يدينا لم تصلا الى هذا الارتفاع . . .

وعلى ارتفاع نحو ياردة واحدة فوق سطح الارض راى لوفل اربعة

احرف كبيرة غير جيدة النقش : ب . ف ، م . ف . ونظر لوفل الى الحروف الاربعة بامعان ثم اخرج بسرعة غريبة مدية من جيبه وسالها باسما :

ــ هل يُجوز لنا ان نضيف الحروف الاولى من اسمينا فى هــذا اليوم ، أم ان ذلك يكون امتهانا لقدسية الذكرى ؟ فلننقشهما فوق الحروف السابقة حتى تستطيعى ان تحددى مبلغ نمو قامتك منذ ذلك التاريخ ... اتسمحين لى ؟ دعينى انقش حرف اسمى نيابة عنك

واحست بسخونة الدماء فى عروق عارضيها وهى تقول :

ــ كما تريد !

واخذت ترقب اصابعه وهى تتحرك فوق جذع الشجرة . وسرعان ما اتم نقش م . ف . ثم تحتها مباشرة ف . ل . ثم قال لها :

ــ اسمى فيليب . واظن بهــذه المناسبة سانايديك فى المستقبل مارجريت . اليس كذلك ؟

فاجابته على الفور :

ــ وهو كذلك يا فيليب !

فنظر اليها نظرة ثاقبة كانما اخذ على غرة وقال :

ــ هيا بنا يامارجريت . هيا نتسلق التل ، فقد تراخت شدة المطر مرة اخرى ...

وكانت شدة المطر قد تراخت فعلا ولكنه عاد الى اعنف من شدته الاولى قبل ان يصلا الى القمة . ومن القمة لم تقع عيناهما على منظر سوى منظر الوادى الممتد ينصب فوقه المطر . وكان برج المراقبة الذى بنى قديما ليكون من علامات الطريق التى تشاهد على مسافة كبيرة جدا من جميع الجهات ، ينهض شامخا فوق راسيهما كالديدبان الاسود

وحدثته عن تاريخ ذلك البرج ، وكيف ان سيدا من رجال القرن الثامن عشر جعل منه مرقبا للنجوم ، لان ذلك السيد كان شغوفا بعلم الفلك :

ــ ان داخله طريف جدا . وهو طبعا داخل حدود ممتلكاتنا وان كنا لا نجنى منه اية فائدة . ولو كنت ادرى سلفا اننا سناتى الى

هنا لجئت معى بالمفتاح

فاخذ يدور حول البرج كانه حيوان متابد . او هذا على الاقل ما خطر لها وهى تراه يغوص فى الطين إلى عقبيه ويواجه المطـــــر والرياح ، وكانه لا يحفل بها . وسمعته يغمغم :

ـ كنت احب ان ارى ماذا يبدو من الداخل

فقالت :

ـ للاسف لم افكر فى احضار المفتاح

وبعد قليل سمعته يناديها من الجانب الآخر :

ـ مارجريت ! استطعت ان افتح الباب . فتعالى وانظرى !

فجرت تدور حول البرج ، وبعد لحظة كانا معا داخل البرج المظلم الذى تفوح منه رائحة الرطوبة وقد اغلق الباب وراءهما لمنع تسرب المطر . وقالت :

ـ لم آت الى هنا منذ زمن طويل . انقضت سنوات طويلة منذ آخر مرة كنت فيها هنا

ـ مع بومى فيما اظن !

ـ نعم

فواجهها وهو يقول لها :

ـ وهانتذى الان هنا معى انا

فاجابته ببساطة وهى تسبقه الى الداخل :

ـ هناك خزانة صغيرة فوق هذه الحجرة كان ذلك العجوز يجلس فيها امام منظاره المقرب

ـ هل كان مسنا ؟

ـ لعله لم يكن مسنا فى البداية . ولكن هذه الهواية استمرت زمنا طويلا

ـ لابد انه كان انسانا غريب الاطوار !

ـ نعم وهناك اساطير كثيرة تدور حوله على السنة سكان المنطقة

وصعدا معا السلم العتيق الذى كان ينخره السوس ، الى ان برزا اخيرا فوق سطح دائرى تغطيه الاقذار والتراب بطبقة كثيفة . وبعد لحظة صمت قال فيليب :

ـ لم اعد استطيع ان اطرد من ذهنى صورة هذا الرجل الذى عاش

الفصـل الرابـــع

عاصفة

في ليالي الصيف الطويلة التي اعقبت ذلك اليوم المطير ، امسى من عادتها ان تجلس الى النافذة المفتوحة في قاعة الاستقبال : عندما يكون فيليب ووالدها مشغولين بالكلام والمناقشة حول مشروعهما المشترك . وكانت تلك الامسيات رقيقة الانسام ، رطبة الهواء هادئة . وكانت جميع الروائح الزكية التي تنبعث من اشجار الحديقة المترامية تتوافد الى مكانها من النافذة المفتوحة ، وتمتزج في خياشيمها برائحةالطباق الذي يتصاعد دخانه من حيث يجلس الرجلان اللذان تحبهما . . .

وكان يشق عليها ان تعرف على سبيل القطع ايهما احب اليها . . . ذلك ان حبها لفيليب بدا لبصيرتها الواعية وكانه قد استشرى في كيانها ، حتى امتص وتمثل وتغذى على كل حب آخر اكنه قلبهـــا لانسان من البشر . . .

كانت سعيدة ضربا من السعادة بلغ حد الروعة . حتى انها كانت تغيب عن الوجدان الواعي بما حولها من تفاصيل الواقع المحسوس . وعلى هامش حلمها الجميل كانت تتردد انغـــام كموسيقى مواكب التهليل . . . ولم تكن تلك الانغام الا مقاطع من عبارات الرجلين ترتفع طبقة او طبقتين فوق المستوى العادي لحديثهما المتصل . فيقول ابوها :

ــ على رسلك يا لوفل ، يا ولدي . . .

وعندئذ يطغى على صوت ابيها قول فيليب في حماسة :

ــ انا واثق من ذلك يا مستر فرينشام . واثق تمام الثقة !

وكانت تعلم انها تريده اكثر مما خيل اليها . او اعتقدت انها يمكن ان تريد شيئا او انسانا في يوم من الايام ! وكانت حرية ان تذهب الى

ابيها وتنفض بين يديه الحقيقة المجردة ، كعادتها منذ كانت فى كل شأن من شئونها ، لولا ان فيليب كان له فى ذلك راى آخر

وكان موقفه غريبا فى نظرها : لانها كانت تتوقع منه أن يبدى من الحماسة واللهفة على اتمام هذا الامر بينهما ، مثل الذى يبديه من الحماسة واللهفة بسبب آلته التى تدار بالبترول . ولكنه لم يكن متحمسا لهفان . بل كان هادئا وحذرا الى حد كان يسخطها ويثير غضبها . وكانت حجته التى أدلى بها :

ـ انى ارى على العموم انه من دواعى الحكمة الا نخبر والدك بشىء فى الوقت الحاضر على الاقل ... ولا نخبر احدا على كل حال بما ... . فان اسرتك ليس من المرجح ان تطير فرحا بمثل هذا النبأ . فليس هناك ما يدعو اذن لاستعجال ظهور العراقيل وهبوب الاعاصير

ـ ولكن ابى يحبك حبا عظيما . انا اعلم هذا !

ـ نعم يحبنى حب الحامى لمن يلوذ بكنفه وبرعاه . ولكنه ليس حب الرجل لشاب يرتضيه زوجا لابنته

ـ ولكنه سيحبك هذا النوع من الحب ويرى فيك زوجا لائقا بابنته اذا علم اننى اريدك لى زوجا

فهز راسه وقال :

ـ كلما عظم حبه واعزازه لك يا مارجريت كان ذلك أدعى لكراهته ان يراك تلقين نفسك هدرا على عنق مخترع مفلس ...

ـ ولكنك لن تظل مفلسا على الدوام . أليس كذلك ؟

ـ انا واثق اننى لن اكون مفلسا على الدوام . ولكن ليس بين يدى الآن ما اعزز به موقفى ومطلبى . وهذا هو السبب فى انى اريد ان انتظر الى ان اتم آلتى ، واعرض عليه نموذجا . وعندئذ لابد ان يدرك ... مواهبى . لن يكون له من ذلك مناص



وذات صباح من ايام شهر يولية ، اذ هى منهمكة فى مراقبة فيليب وهو يعمل تحت العريشة ، نادتها امها من شرفتها . فصعدت اليها وقربت من مكانها مقعدا مصنوعا من القش وقالت وهى تجلس اليها :

ـ يبدو عليك تحسن ظاهر يا امى

ـ حقا ؟

ـ نعم . انت احسن بكثير . وانا واثقة انك استفدت كثيرا من

الخروج الى الهواء الطلق فى الشرفة اليوم . وليتك تنهضين فتغادرين الفراش كل صباح كما فعلت اليوم !

ــ اوه !

ــ انا وبابا نعتقد كلانا ...

وتوقفت عند هذا الحد لانها احست بالتسرع وبانها اساءت معالجة الموضوع ، وانها اندفعت فى مفاتحة امها تلبية لرغبة ابيها بغير كياسة . ولكن ذهنها فى الواقع لم يسعفها كثيرا لانها لم تكن فى هذه الايام تفكر فى امها اطلاقا . بل ولا فى ابيها ايضا . لان صورة فيليب هى التى كانت مسيطرة دون سواها على تفكيرها كله ... صورة فيليب وهو واقف امام مشروع اختراعه ، وقد شمر قميصه واشعة الشمس تنعكس على عضلاته القوية الداكنة

وتكلمت امها فى موضوعات شتى فترة من الوقت ثم قالت :

ــ انا اعرف جيدا يامارجريت وجهة نظرك انت وابيك بشأنى . والآن اما وقد رايت انت من اللائق ان تقدمى الى النصح ، فلعلك تبدين استعدادا لتحمل النصح الذى ارى لزاما على ان اسديه اليك

ولم تجب مارجريت . لان ذهنها لم يسعفها باى معنى واضح محدد لذلك الكلام . فكل ما فى ذهنها من الوضوح منصب على تلك الصورة الفريدة التى لا شغل لها بصورة سواها

واستطردت امها تقول بهدوء :

ــ ونصيحتى هى ... دعى مغازلة ذلك الرجل لوفل !

واستيقظ ذهنها دفعة واحدة :

ــ مغازلة ؟ ... هل قلت مغازلة ؟

ــ هذا ما قلته

ــ لم نكن نتغازل !

ــ اذن ماذا كنتما تصنعان حتى الآن ؟

لا جواب !

ــ انى احذرك يامارجريت من هذا الرجل . فانا افهم الرجال ، وان كنت قد لا تصدقين ذلك . فهذا الرجل لا يعنيه شىء فى الدنيا سوى طموحه ومطامعه

ــ ليس هذا صحيحا فانت لا تعرفينه . وانا لا استطيع ان احتمل

..ماك تتحدثين عنه على هذه الصورة ! وانا لا ابالى بما تقولين ...
وهذا لن يقدم ولن يؤخر !

ــ اه ... هذا ما قدرته . اذن فكل شيء متفق عليه بينكما ؟

ــ نعم !

ــ اتظنين انك ستتزوجينه ؟

ــ .ن اعلم انى سأتزوجه !

ــ اتتوهمين ان والدك سيوافق ؟

ــ ولماذا لا يوافق ؟

ــ اتعتقدين حقا انه سيوافق ؟

ــ انا ... لا ادرى ...

ــ فى استطاعتك ان تعرف الجواب اذا سألته صراحة

ــ كان فى نيتى ان اسأله رأيه . وكان ذلك فى نية فيليب ايضا .
ولكننا فضلنا ان ننتظر الى ان ... الى ان ...

ــ الى ان يتأكد من انه سوف لا يطرد من البيت قبل الفراغ من
ا...ء الته الجديدة ... نعم هذا شيء مفهوم . فالآلة الجديدة لها
الا...ار الاول عنده ، لا انت ... ولكنى على كل حال قد حذرتك ،
وهذا كل ما استطيع ان اصنعه . والان يحسن أن تبحثى عن مينشن
وتطلبى اليه ان يأتى لدفع مقعدى

وكان البيت خاليا لان والدها كان قد ذهب الى شلتنهام لقضاء
...انه النهار هناك بسبب بعض اعماله . وقد تولى بنفسه قيادة
المركبة الصغيرة كما يحلو له دائما ان يصنع فى الايام الساطعة الشمس
..ا...كان تحت العريشة ... فشعرت فجاة بتعاسة شديدة .
..ولى عليها احساس بأن السعادة الرائعة الصافية التى تمتعت
...الماضى القريب لا يمكن ان تدوم ، وليس مقدرا لها أن تدوم .
...ل اليها ان اشعة الشمس نفسها قد غشيتها كآبة معتمة ، فاتجهت
ال..اهده حجرة الاستقبال واطلت على الحديقة . وعندئذ تبينت ان
هذه العتمة ليست وهما . لأن سحابة من ضباب خفيف لبنى اللون
... قد ... صفحة السماء كلها . وسكن الهواء وازدادت الرطوبة
والحرارة ، مما ينذر بهبوب عاصفة من عواصف الصيف
...ادرت البيت الى الحديقة واتجهت نحو العريشة . فرأته حيث

تركته منصرفا الى العمل . وهز لها راسه وابتسم ، ولكنه ما كان يبتعد ولو لدقيقة واحدة عن ذلك الهيكل الغريب الشكل من التروس والاسطوانات . وقفزت الى ذهنها فى التو واللحظة كلمات أمها اللاذعة.

« انها الآلة الجديدة . هى وحدها لها المقام الاول من اهتمامه . لا انت ، فهل لهذه الكلمة نصيب من الحقيقة ؟ »

واحست انها لن تصمد للصدمة لو ان لهذه الكلمة ظلا من الحقيقة وطغى عليها طوفان من الجزع جعلها تصرخ هاتفة باسمه ثم تنفجر ناشجة بالبكاء . وعندئذ كف عن العمل وقال :

ــ ماذا جرى يا مارجريت بحق السماء ؟

. قبل ان يتسنى لها ان تجيب استطرد يقول :

ــ لا يحق لك ان تبكى . لانك فى الواقع اقبلت فى لحظة نجاحى . بعد ساعتين اثنتين سيكون كل شىء على اتم اهبة كى يراه والدك . انه سيعود الليلة . اليس كذلك ؟

فاجابته ببلاهة :

ــ بل سيعود الليلة .. وامى قد اكتشفت امرنا يا فيليب

ــ يا الهى . اتعنين هذا حقا ؟ وهل قامت بسبب ذلك مشادة ؟

ــ كلا . كل ما هناك انها حذرتنى منك . حذرتنى من الثقة بك ، ولكنى اثق بك فعلا . يجب ان اثق بك . اليس كذلك ؟

ــ طبعا . طبعا . ولكن امك ... تعترض طبعا ؟

ــ نعم . فهى تكرهك . ولعلهـــا تكرهنى انا ايضا ... فلا اظنها متعلقة باحد حقا فى الدنيا كلها اللهم الا بومى ... ولكنى لا ابالى ... لا ابالى ما يمكن أن يحدث ما دمنا ...

وقدمت شفتيها الى شفتيه وتعلقت بعنقه بحرارة ، وأسلمت نفسها لاحضانه . فاشعلت حذوتها جذوته ، فاخذ يقبلها الى أن شهقت وقد افرخ روعها وقالت له بصوت مضعضع من الانفعال :

ــ فيليب . فيليب . انا لا اريد ان اضيع وقتك الذى يجب أن تصرفه فى اتمام عملك . اريدك ان تغدو رجلا عظيما ... اريدك أن تكون طموحا ... ولست ابالى كم من الزمن تقضيه بعيدا عنى فى صنع الآلتك ...

فحملق فى وجهها متعجبا من قولها ، ولكنها استطردت :

ـ ستكون سعيدين جدا ٠٠ ستكون انت سعيدا بآلاتك وانا سعيدة بالعالم ٠ اريد حفنة كاملة من الاطفال ٠٠٠ أنا أعلم أننى لا ينبغى ان اقول شيئا كهذا . ولكن لا حيلة لى فى ذلك . لا استطيع ان أمنع نفسى من مصارحتك بما فى نفسى ... ولكنى لا ينبغى أن اضيع وقتك ... وعندما يعود ابى الى البيت الليلة يا فيليب ، هل تأذن لى ان اخبره بأمرنا ؟

ـ الليلة ؟

ـ نعم اود ان افاتحه الليلة . فامى لم تخبره بما تعرفه بعد . ولكنها قد تخبره . وانا لا احب ان يصل النبأ من احد قبل ان نفاتحه نحن

ـ ولكنى يامارجريت افضل ان ننتظر حتى الغد . فالآلة كما ترين قد نجحت نجاحا عظيما ٠ وانا واثق انه بعد أن يراها سيكون أكثر استعدادا لسماع ما نريد ان نقوله له

ـ انى على كل حال افضل ان اخبره الليلة . ارجوك ان تدعنى اخبره الليلة

ـ ارجو الا تفعلى ذلك . فهو خطأ كبير !

ـ هل تعدنى بأن تدعنى اخبره غدا ؟

ـ سنخبره كلانا غدا ان احببت ، بمجرد مشاهدته للآلة ؛ الآلة ... الآلة ... الآلة

ـ وهو كذلك اذن . والآن ساتركك لتعمل فى هدوء.

ومرت الساعتان دون ان يفرغ من عمله . وفى موعد الغداء لم يظهر له اثر . وجلست تنتظره وقتا طويلا . ولما يئست من حضوره اسرعت تعدو نحو العريشة كى تاتى به فتقرات على وجهه ان شيئا ما ليس على ما يرام

وقال لها ان عقبة صغيرة قد برزت فى الطريق فجاة . وأكد لها ان شأنها . ترس صغير كسر فى آخر لحظة وسيقضى فترة بعد الظهر معظولها فى صنع ترس آخر . وانه لا يستطيع ازاء ذلك ان يقتطع وقتا للغداء

ولما الحت عليه ان يتغدى قال انه لا يجد شهية للطعام . فان شاءت فلها ان تبعث اليه مع مينشن بشطيرة وزجاجة جعة

وعندما حان وقت تناول الشاى كانت صفحة السماء قد ازدادت تلبدا بالغيوم . وبدات همهمة الرعد تتواكب قادمة من المشرق . فتمنت على الله ان يكون والدها قد بدا رحلة العودة من شلتنهام . لانها تعرف الحصان الذى يجر العربة الصغيرة ، وتعلم انه يهيج وتثور اعصابه حينما يشعر باقتراب الزوابع وقد يجمح

وانقبض صدرها وعاودها الشعور بالكوارث . وخيل اليها كانها تمشى بمفردها فى بطن واد طويل ممتد . ثم رات فجاة الجبال على الجانبين تتهاوى ببطء لتنقض فوقها

وتناولت الشاى فى حجرة الاستقبال . واخبرها مينشن ان امها اوت الى فراشها معلنة انها اسوا حالا مما كانت . وعلق مينشن على ذلك بقوله :

ـ انه الفلال الجديد مرة اخرى يا آنسة مارجريت . ملاحظتى لا تخيب

وحل وقت العشاء . ولم يعد والدها ، ولم يفرغ فيليب من عمله واحست انها لاتتحمل طاقة الذهاب الى العريشة مرة اخرى فارسلت مينشن الى فيليب تخبره بتاخير موعد العشاء الى حين عودة والدها وعاد اليها مينشن بالرد :

ـ مستر لوفل يقول انه سعيد جدا يا آنسة بهذه الفسحة من الوقت .. سعيد جدا بهذه الفسحة من الوقت .. مع آلته ..

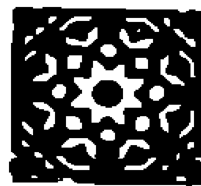
ـ اما زال المطر ينهمر يا مينشن ؟

ـ قطرات كبيرة تسقط بين الحين والحين يا آنسة ... ولكن الغيث سرعان ما ينهمر بعد قليل بشدة ... بل اتوقع ان تكون العاصفة بالغة العنف يا آنسة

وفى هذه اللحظة ومض برق شديد فاخترق نوره الستائر . ثم اعقبته انفجارات هائلة من الرعد القاصف . فاجفلت . لكن خوفها لم يكن على نفسها بل على ابيها . وانصرف ذهنها ايضا على الفور الى فيليب فالحصان سريع الهياج فى هذا الجو ...

وفجاة ، وسط هدير موجة اخرى من الرعد رات الباب ينفرج عن وجه مينشن الاحمر المتهدل . وقرات فى عينيه ان شيئا ما قد حدث . ومن الغريب انها لم تفكر فى تلك اللحظة الا فى البيت فخطر

اما ان جانبا من ابنيته الخارجية نزلت به صاعقة من البرق
وسمعت مينشن يناديها عبر الحجرة بهمس أجش :
ـ مس مارجريت .. مس ما رجريت . لقد عاد السـيد ...
ولكنه مريض جدا... وقدحملناه الى قاعة البلياردو ... الاتذهبين اليه ؟



الفصـــل الخامس

الصدمة

كان والدها مستلقيا فوق اريكة وقد تصلبت ساقاه ، وتدلى ذراعاه الى الارض . وكان مينشن واحد البستانيين العاملين فى الحدائق المحيطة بالدار قد حملاه الى قاعة البلياردو ، لانهـا اقرب الحجرات الى الباب ...

والظاهر أنه دخل بعربته الى فناء البيت ، ثم سلم الحصـان والعربة الى احد عمال الاسطبلات ، ثم اسرع الخطو تحت وابل المطر الى مدخل المطبخ . وهناك راى مينشن واصدر اليه بضعة اوامر فى لهجة حادة . وكان ذلك امرا غير مالوف اطلاقا وقد دهش له مينشن دهشة عظيمة ...

واسرع فرينشام بعد ذلك مخترقا الدهليز المؤدى الى الجـزء الرئيـسى من بناء الدار . وهناك بالقرب من قاعة البلياردو سقط على الارض ، وقد اصابته نوبة من نوع ما ...

كل هذا اخبرها به مينشن وهو يلهث . وقد وقفت شاخصة العينين الى ذلك الوجه الاحمر المتقلص الذى لم يعد الا ظلا مشـوها للوجه الذى طالما احبته ... ولم تستطع ان تصرخ . واستولى على ذهنها نوع من الصفاء البارد كصفاء الثلوج المتجمدة . فخطر فى ذهنها على الفور خاطر وصاحت :

ـ يجب ان يذهب احد لاحضار الدكتور فرجيسون فورا

وكان البستاني قد ذهب لاحضار الطبيب بالفعل . اخبرها مينشن بذلك ولكنه فى الوقت نفسـه قال ايضا ان الطبيب ربما لم يتمكن من الحضور فورا بسبب العاصفة . فقالت مارجريت :

ـ من المستحسن ان نتركه راقدا هنا الى ان يحضر الطبيب

ـ نعم يامس مارجريت . و .. وهل .. هل اخبر السيدة ؟

فاجابته بهدوء تام :

كلا . ليس الان . لان ابلاغها النبأ لن نجنى منه الا زيادة المتاعب فلننتظر الى ان يحضر الدكتور فرجيسون اولا . واعطنى ... من البراندى ... ثم اذهب الى العريشة الملحقة بحظيرة الالبان واطلب من مستر لوفل ان يأتى الى هنا فورا !

وخيل اليها ان ساعات طويلة قد انقضت قبل حضور فيليب . وكانت العاصفة قد وصلت الى اشدها . فلما دخل رات وجهه ملطخا بالتراب والمطر . واشارت اليه اشارة خاطفة كى يلزم الصمت

وبدا عليه لاول وهلة انه غير ميال لتجاوز عتبة البـاب . ولكنها ... يديه وهمست قائلة :

... ابى مريض جدا فيما اظن يافيليب ، لقد اصيب بنوبة . وقد ... فى طلب الطبيب ولكن العاصفة ربما عاقته عن الحضور فى الحال ... هل تعرف شيئا فى أمور التطبيب ؟

... هز راسه وحملق فى شبه فزع الى الجسد الملقى على الاريكة ولم ... شيئا . فقالت مارجريت :

لا بأس . ابق معى على كل حال الى ان يحضر فرجيسون

واشارت له الى مقعد فى الناحية الاخرى من الاريكة . ورغم ... نها الغريب شعرت بخفقة اشفاق عليه ، لان المفاجأة هزت اعصابه ... له قوتها فى مثل هذه المواقف !

... ما استطاع اخيرا ان يقوى على الكلام قال متلعثما :

كيف حدث هذا ؟

... ثم جلسا معا فى صمت تام

وانقضت ساعة كاملة الى ان حضر فرجيسون اخيرا وكان قد ... الا طويلة تحت وابل المطر . فجعلت قطرات الماء تتساقط ... امام الاريكة التى يرقد عليها المريض . وفرجيسون ... الاسرة العجوز منذ سنوات طويلة ، وهو الذى اشرف على ولادة ... وبومى ولذا كان يهتم بهما اهتماما ابويا يكاد يصل الى ... . وقد بادر مينشن بقوله :

... حالا بكوب من الويسكى

ثم التفت الى مارجريت وقال لها :

ــ اين امك ؟

فاجابتها مارجريت بحدة واضحة :

ــ انها فى الطابق العلوى . فى حجرتها . وقد راينا . او على الاقل رايت انا أنه لا جدوى من اخبارها فى هذه المرحلة على الاقل . قبل حضورك

ــ آه . نعم . ، ولكن يجب أن تخبريها يا مارجريت . اخبريها فورا . اذهبى الان واخبريها ريثما القى نظرة على ابيك . وسيعاوننى مينشن وهذاالشاب (واوما براســه الى جهة لوفل) فى حمله الى فراشه بعد ذلك

وصعدت مارجريت الى الحجرة المضاءة بالشموع والتى تبدو دائما رغم الالفة الطويلة مكتظة بالستائر والابسطة والطنافس المعلقة وكانت والدتها مستيقظة. فقالت لهابغير مقدمات لانها لاتملك القدرة على التلطف فى البلاغ :

ــ ابى مريض يا أمى . وفرجيسون يريد منك ان تريه فورا . ولذا يجب ان تنهضى الان . وساتولى مساعدتك فى ذلك

وكان هدوء امها يضارع هدوءها . ولكنهما من نوعين مختلفين . فكان كل ما قالته الام :

ــ يستحسن أن يتولى مينشن دفع مقعدى كالعادة !

فاجابتها مارجريت بحدة واضحة :

ــ لايمكنك الآن الاستعانة بمينشن لانه مشغول بمعاونة فرجيسون وتلبية أوامره . واستطيع انا ان ادفع مقعدك

ــ وهل تعرفين كيف تحفظين توازن المقعد ذى العجلات منذ النزول على السلم ؟

ــ لم اجرب من قبل . ولكنى ساحاول

وقبل ان تبدا المحاولة فعلا حضر مينشن وعرض خدماته قائلا :

ــ لقد حملنا السيد الى الطابق العلوى حيث حجرته . ويود الدكتور ان يتحدث اليك فى الطابق الاسفل فى قاعة البلياردو يا مس مارجريت

فتركت أمها مع مينشن ونزلت الى قاعة البلياردو ، فوجدت

مرجيسون يغلق حقيبته الطبية ، ولكنه عندما رآها تدخل صب لها ولنفسه قدحين كبيرين من الويسكى وامرها قائلا :

ـ اشربى هذا جرعة واحدة ثم اشربى قدحا آخر بعده فانت الشخص الوحيد الذى يتعين عليه أن يتحمل كل هذا العبء فيما ارى

واستطرد بين جرعات كبيرة من الشراب يقول :

ـ لن اخفى عليك شيئا . فالحالة بكل صراحة خطيرة . فمنذ شهرين جاءنى ابوك واخبرنى انه يشعر بالام غريبة فى راسه . ففحصته فحصا دقيقا ثم قلت له « يا فريشام . لابد لك ان تقلع عن التدخين ومن تعاطى الاشربة الكحولية ، وان تعيش حياة هادئة كل الهدوء فى المستقبل »

ـ وماذا كان جوابه ؟

ـ اخذ يسب ويلعن فى اول الامر ورفض الاذعان ، ولكنى الححت عليه الى ان حملته على التعهد بالاقلاع نهائيا عن الطباق والخمر ، ولكنه لم ينجز وعده . وكنت اتوقع منه ذلك . لانه رحل الى لندن حيث قضى اسبوع اليوبيل الملكى . وهناك طبعا كان يدخن السيجار ويشرب الخمر كل ليلة ... ثم جاءت ضمنا على ابالة رحلة اليوم عائدا من شلتنهام فى عربة مفتوحة وسط اسوا عاصفة عرفناها منذ سنوات . وهذه هى النتيجة !

وكانت مارجريت تصغى لما يقوله الطبيب العجوز وهى واقفة وظهرها الى مكان المدفأة الخالى من النيران فى هذا الفصل من السنة، وهى ترشف الويسكى بطريقة آلية . واساريرها هادئة كل الهدوء. ولما فرغ الطبيب من كلامه سالته :

ـ انعتقد انه سيتحسن ؟

فقال لها :

ـ ارجوا هذا !

ولم تفتها الملاحظة ، فقالت :

ـ ترجو هذا ولكنك لا تعتقد انه سيحدث ؟

وترك سؤالها بغير جواب . واستمر فى اعداد حقيبته . قائلا

لابد لى من العودة الى البيت كى اعد بعض العقاقير التى سيكون

ـ اسمه لوفل
ـ ضيف فيما اعتقد ؟
ـ نعم !
ولم يعقب على ذلك بشيء . . . .

وبعد انصرافه صعدت مارجريت الى الطابق العلوى ودخلت حجرة ابيها فوجدت امها جالسة فى مقعدها المتحرك بقرب فراشه . وكان لم يزل غائب عن صوابه وليس هناك شيء يمكن أن يصنع سوى الانتظار

وتوقف المطر عن الهطول ، وهبت على حجرة النوم رياح ندية دفعت بالستائر فانكشفت عن صفحة سماء زرقاء داكنة ولكنها حافلة بالنجوم. واشارت امها فى ضيق الى الستائر التى يعبث بها الهواء فقد كانت تكره النوافذ المفتوحة وتسمى كل نسمة رخاء ريحا صرصرا

ونهضت مارجريت الى النافذة فاغلقتها وهى تفكر فى روعة السير بين الاشجار فى ليلة صافية ندية الهواء كهذه الليلة ، سماؤها حافلة بالنجوم والهلال تحيط به هالة ،ومن الارض التى اثار كوامنها الغيث، يرتفع عبير الاعشاب مختلطا بالازهار التى تتناوح بها اغصان الشجر

ولم تكن الصورة خالية من فيليب . فلاشك انه سيجد فى تلك النزهة الليلة راحة من عناء التوتر العصبى الذى اصابه على اثر الحادث .. فلماذا لاتحمل البرقيات وتصحبه الى القرية ؟ ولابد من ايقاظ الموظفين كى يرسلوا البرقيات . وهؤلاء الموظفون سيتولون اذاعة الخبر على جميع الناس فى المنطقة بمجرد طلوع النهار . وسيهز الناس رءوسهم ويقول القائل منهم :

ـ بالفرينشام المسكين ! .. أهكذا فجأة ؟ فى الاسبوع الماضى فقط

شاهدته يمر وهو يقود العربة بنفسه وتبدو عليه الصحة الكاملة لا
ونظرت الى امها . فوجدتها تنظر اليها . فسألتها :
ـ انشعرين بتعب يا امى ؟
ـ اشتدت آلامى ... واظن هذا من اثر الصدمة . ماذا قال فرجيسون ؟
ـ لم يقل سوى انه لا حيلة لنا سوى الانتظار . وانه سيعود فى الساعة الحادية عشرة . وقال ايضا انه ينصحك بالايواء الى فراشك ان شئت ذلك
ـ اظن ان هذا يستحسن ... ولكنى سوف لا اخلع ثيابى ... قولى لبنشن ان يأتى ليدفع مقعدى
وذهبت تبحث عنه فوجدته محتقن الوجه ، لاهث الانفاس من اثر المجهود والمفاجأة . وجاء فدفع المقعد وانصرف بالسيدة المريضة كما تعود ان يفعل منذ سنوات
وقالت مارجريت لامها وهى منصرفة :
ـ سادعوك يا أماه اذا دعت الحالة لذلك !
وخلت لنفسها برهة . وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بثلاثين دقيقة . ولن يلبث فيليب وفرجيسون ان يعودا . وكان فيليب هو الذى عاد اولا فتركت له فسحة من الوقت لتناول العشاء ثم طلبت من مينش ان يستدعيه . لانها قدرت انه سيشعر بالوحشة وهو بمفرده فى الطابق السفلى . ثم لعل الخروج فى الهواء الطلق ... سيفيده ...
وطرق الباب برفق ثم فتحه ، فلاحظت مرة اخرى توتر اعصابه بصورة غريبة . ووقف عند عتبة الباب الى ان ذهبت اليه وقالت له
ـ يا فيليب . افضل ان تبقى معى الى ان يعود فرجيسون . ولن يطول الانتظار ... فهل لديك مانع ؟
وجلسا على الجانبين المتقابلين للفراش واخذا يتحدثان همسا .. ونظرت هى الى ابيها وهو راقد فادركت انها لم تفطن من قبل الى عظم ضخامته . وجعلها ذلك تفكر فى امها القصيرة النحيلة . فلاشك ان الناس كانوا يضحكون دائما من منظر الاثنين معا . ولكن لابد ان

هذا كان منذ زمن بعيد . لانهما لم يخرجا الى المجتمعات معا منذ سنوات كثيرة ... ان راسه وهو على الوسادة يبدو اضخم بكثير من المعتاد . وعروق جبهته وعارضيه زرقاء شديدة الزرقة كانها توشك أن تنفجر

وخيل اليها ان الهواء فى الحجرة غير كاف . وكان ابوها على عكس امها يحب الهواء الطلق دائما . فقالت همسا :

ـ افتح النافذة يا فيليب . فان والدى جعلتنا نغلقها عندما كانت هنا ، ولكنى اعتقد اننا يجب أن نبقيها مفتوحة

فنهض وفتح النافذة ثم جلس . ودقت الساعة الضخمة دقة الربع بعد الحادية عشرة . فلا شك ان فرجيسون سوف يعود بسرعة ... ان السكون سائد تماما . وسوف يصل الى سمعها حتما صوت الحصان وهو قادم على الطريق ... يبدو لها أنه قد مرت ساعات وهى فى الانتظار . ومرت سنوات منذ الليلة الماضية ، حينما سارت هى رفيليب معا على شاطىء النهر ، وكانت الحياة تبتسم لهما . وكل شىء يبدو فى عينيها رائعا . وهمست فجاة :

ـ فيليب !

فرفع اليها عينين تنطقان بالفزع . وقالت :

ـ فيليب ... هل حقا تحبنى ؟

ـ احبك ؟ نعم بالطبع ... طبعا احبك !

فهزت راسها وابتسمت وتركت الصمت يخيم عليهما مرة اخرى اذا لم يحضر فرجيسون بعد قليل فلابد أن ترسل احد البستانين للبحث عنه على الطريق ...

ولكن فجاة ، وبينما هى ترتب فى ذهنها ما تصنعه فى هذا الصدد ، شعرت بحركة خفيفة تصدر عن الفراش . وادركت أن عينى ابيها زايلهما ذلك التحديق الزجاجى المتجه الى السقف ، فهما الآن تصوبان نظرة ثاقبة الى فيليب . وهمست تقول له :

ـ انظر .. انظر ! انه يفيق !

ثم استطردت تقول بكل لطف :

ـ كل شىء على مايرام يا أبى ... نحن هنا ... مارجريت و ... مستر لوفل ...

واكفهر وجه فيليب ، وجلس معقود اللسان ساكنا كالتمثال .
وتعجبت لماذا لم يقل شيئا ملطفا لخاطر الاب . وعللت ذلك بانه لم يزل مهتز الاعصاب من وقع الحادث

وبعد ذلك حدث صراع لم يكن أمامها هي وفيليب الا ان يشاهداه من غير ان تكون لهما حيلة فيه . لقد كان ابوها يكافح في سبيل النطق . واصابعه تتشبث بمفرش السرير في جنون ، وكانه يصارع عدوا خفيا اخذ بمجامع لسانه وحنجرته . ولم تسفر تلك المعركة المسيئة الا عن كلمة واحدة مفهومة المقاطع . وهذه الكلمة هي « لومل » !

وهمست مارجريت وهي تنحني فوقه :

ـ ما هو ذا هنا يا ابي !

ولكن الصراع كان قد انتهى ، واستكان الرجل للرقاد وقد تلاحقت انفاسه التي يجد صعوبة شديدة في استجماعها ، فقالت :

ـ يا فيليب . اني اشعر انه من الواجب استدعاء أمي . . . نعم انه لا يبدو اسوا حالا مما كان ... ولكن مع هذا اذهب وناد مينشن

واسرع الى الباب بيد انها استوقفته قائلة :

ـ كلا . كلا . . . لا تذهب الان

ثم انحنت مرة اخرى فوق الفراش . وقفزت بعدئذ واقفة حتى انها كادت ان تسقط المقعد على الارض ، وصاحت بصوت اجش :

ـ اعتقد ان شيئا قد حدث . . . لا اظنه يتنفس . . . كان يبدو انه يرتجف . . . فيليب . . . استطيع ان تعرف . . . ؟

ووقف الاثنان امام الفراش وتطلعا الى الرجل الراقد هناك . وكان يبدو هادئا . وخيل الى مارجريت انه عوفي مما كان يشعر به . وان الساعات التي مرت بها اخيرا لم تكن سوى حلم مزعج . وانه يوما عاديا

ولكن فيليب هز راسه وقال :

ـ اعتقد انه . . . هل ابقى هنا الى ان تستدعي انت احدا ؟

فقالت بحزم

ـ كلا . سابقى انا واذهب انت وائتني بمينشن

وانهار تجلدها عندما صارت وحدها في الحجرة. ولكنها استردت هدوءها كاملا عندما عاد فيليب ومعه مينشن

الفصــل الســادس

الحقيقة

رحل فيليب الى برمنجهام فى صباح اليوم التالى . تولى توصيله فى العربة الصغيرة احد السياس الى محطة السكة الحديد . واثناء الطريق التقت العربة بعربة كبيرة مفتوحة كانت تقل ليلى قادمة الى الدار . فحدق كل منهما فى الآخر تحديقا شديدا . . .

لقد سافر لمدة اسبوع الى ان تنتهى مراسم الجنازة . وقد رات مارجريت انها على صواب فى هذا القرار . فذلك انسب تصرف فى هذا الظرف

واقيمت الجنازة فى كنيسة كولد مارستون التى تكاد تقع فى ظل تل ستاو . ولم يحضر الجنازة احد سوى افراد الاسرة وخدمها . ولعل مراسم الجنازة كانت لا تخلو فى جملتها من سخرية خفيفة . لان كيم فرينشام كان فى شبابه من اشد المتحمسين لداروين وهاكسلى عالمى الاحياء المشهورين بعداء الكنيسة لنظرياتهما فى النشوء والتطور . وكان « غنوطسيا » اى انه يؤمن بوجود الله عموما من غير طريق كتب الوحى والانبياء . وبطبيعة الحال كان شديد الاغفال للاشكال والمراسم الكهنوتية والكنسية

وحضر من لندن لشهود الجنازة المحامى باسلو ، الذى راى من الحكمة فتح الوصية بعد الانتهاء من طقوس الدفن مباشرة

ونصت الوصية على هبة ضخمة للارملة التى آلت اليها ايضا الدار والاراضى المحيطة بها . ونصت كذلك على هبات صغيرة لجهات البر وللخدم وما الى ذلك . اما الباقى كله فمقسم بين الاولاد الثلاثة . ولما كان بوميروى بالغا سن الرشد فله أن يتسلم نصيبه فى التركه فورا . اما مارجريت فعليها أن تنتظر مدة وجيزة الى أن

ا . . بدها

٪ . ك ان فرينشام حين كتب هذه الوصية كان يعتقد ان امواله الا . . اه من اسهم وسندات وما الى ذلك طائلة القيمة . ولكنه فى اا . اب الاخيرة منى بخسائر كبيرة نتيجة مغامرات جريئة فى عالم ااا . . . رك وراءه ديونا كبيرة تستغرق تصفيتها وقتا طويلا . ... الارملة وحدها هى التى ورثت الجانب الاكبر من الثروة

. . حى المحامى بمارجريت جانبا وافهمها ان الموقف يحتاج منها ا . . اره . . رة . وربما كان من المستحسن بيع هاى ستاو لمجابهة . . . ا

. . ذا على الاقل اقتراح يجب مناقشته مع مستر بوميروى . . . مود الى الوطن قريبا



. . . م الجو — بعد العاصفة — فى غاية الاعتدال فبدت الحدائق ا. . ه بالدار فى اوج فتنتها . وتمنت مارجريت من اعماق قلبها الا . . . الامر الى بيع هاى ستاو . ولكنها فى الوقت نفسه كانت . . . ه لو اقتضى الامر بيع هاى ستاو فسيكون افتقادها وحنينها الى الحدائق المترامية المحيطة بالدار اكثر من حنينها وافتقادها . . . . . . وكانت تعلم ان هذا هو احساس بومى ايضا . . . . . . ما بينها وبين نفسها كيف عسى بومى أن يبدو لعينيها . . . . فى امريكا وقد طالت ثلاث سنوات . كم سيسعدها ان . . . . . معها فى البيت كسابق العهد . ولاسيما اذا شعر بالمودة . . . . ! ولكنه طبعا سيحب فيليب . لانه من العسير على أى . . . الا . . حب فيليب

. . م . . . انت كراهة امها له لم تتزعزع بمرور الوقت . ولم يعد . . . . . . ر فيما بينهما كثيرا . ولكن فى اصيل الليلة التى كانت . ام . . . له فيها من برمنجهام قالت لها امها فجأة :

. . . لى دارنت ان لوفل سيعود الليلة الى هنا

. . . صحيح

. . . . مسرورة لهذا ؟

. . م

ـ وما سبب عودته ؟
ـ لقد ترك هنا آلته وادواته ورسومه
ـ آه ! الم يكن فى الامكان ارسال هذا كله اليه ؟
ـ بلى . ولكن هناك موضوعات يجب أن نتحدث فيها نحن الاثنان
ـ انه طبعا يعرف اننا لا نستطيع الآن ان نستمر فى تنفيذ اى اتفاق تم بينه وبين والدك ؟
ـ اعتقد انه يدرك هذا
ـ انني مازلت عاجزة عن تصور سبب وجيه لحضوره اطلاقا
ـ قلت لك ان بيننا امورا يجب التحدث فيها
ـ امور تتعلق بآلته الجديدة . هه ؟
ـ نعم . . . وامور اخرى ايضا !
ـ وعلى الاخص الامور الاخرى . اليس كذلك ؟
فقالت مارجريت بصراحتها المعهودة :
ـ بلى !
ـ وهل مازلت بعد كل هذا الذى حدث مصممة على الزواج منه ؟
ـ لست ارى اى وجه كى يحول هذا الذى حدث بيني وبين هذا الزواج !
ورات عندئذ امها تبتسم نصف ابتسامة وتتحسس صفحة وجهها بمنديل مبلل بماء الكولونيا . وكانت جميع نوافذ الحجرة مغلقة اغلاقا محكما . والهواء الساكن الراكد مثقل بروائح العطور المختلفة ، التى تختلط فيها رائحة الكافور برائحة الياسمين وغيره من الازهار العاطرة . وكانت مارجريت تكره هذا الجو الثقيل على الصدر . وكذلك كيم كان يكرهه جدا
وتمنت مارجريت أن تدخل ليلى عليهما لان ذلك من شأنه ان يضع حدا للمناقشة . فهى لا تشعر بالرغبة فى مناقشة امر فيليب مع اى انسان . ولاسيما مع امها . ولكن امها استانفت فجأة اسئلتها من زاوية اخرى :
ـ هل اخبرك الدكتور فرجسون يامارجريت بسبب فاة ابيك ؟
ـ قال لى انه شلل فى المخ

... مطمين انه كان السبب فى ذلك الشلل ؟
... الدكتور فرجيسون ان السبب ربما كان قلقه الشديد
... للوصول الى البيت بسرعة اثناء العاصفة
... الملى او الانزعاج على كل حال . هل اقر لك بهذا ؟
نعم
... استطيع ان اخبرك عن انزعاج اعظم بكثير مما تتصورين .
... له هذا الانزعاج قبل وصوله الى البيت مباشرة
... الام الى الامام فى مقعدها ولبثت صامتة لحظة ولكن
... ام تتكلم . وعندئذ قالت الام :
... راى صديقك لوفل
... ... وكادت عيناها المسليتان تقفزان من محجريهما
...
... ماذا ... ماذا تعنين بذلك ؟
... بذلك انهما تبادلا الحديث . وكنت جالسة امام نافذتى
... اسمع حديثهما رغم ضجة المطر والرعد . فلى اذنان
... سليمين . ولكن كلامهما كان بصوت عال جـــدا ...
... رك لوفل بذلك الحديث ولم يذكر لك شيئا عنه ؟
... ارجريت فلم تجب . فقالت الام :
... انه لن يخبرك بامر هذا الحديث . لانى لم اتوقع
... صريحا معك ، كصراحتك معه !
... المسالةالان يا أمى . ولكن خبرينى ماذا حدث بينهما ؟
... ما اعرفه وهو ليس بالشىء الكثير : كان والدك
... البيت عن طريق باب المطبخ ، وكان لوفل معـــه ،
... قبل هذه اللحظة . ولم اسمع بوضوح ماذا كانا
... كان من الجلى انهما يتشاحنان . وكان من الجلى
... المشاحنة هو انت
...
... حقا ؟
... اى نوع من التشاحن كان هذا ؟ هل كانا
... محادله ؟

ـ وما سبب عودته ؟
ـ لقد ترك هنا آلته وادواته ورسومه
ـ آه ! الم يكن فى الامكان ارسال هذا كله اليه ؟
ـ بلى . ولكن هناك موضوعات يجب أن نتحدث فيها نحن الاثنان
ـ انه طبعا يعرف اننا لا نستطيع الآن ان نستمر فى تنفيذ اى اتفاق تم بينه وبين والدك ؟
ـ اعتقد انه يدرك هذا
ـ انني مازلت عاجزة عن تصور سبب وجيه لحضوره اطلاقا
ـ قلت لك ان بيننا امورا يجب التحدث فيها
ـ امور تتعلق بآلته الجديدة . هه ؟
ـ نعم ... وامور اخرى ايضا !
ـ وعلى الاخص الامور الاخرى . اليس كذلك ؟
فقالت مارجريت بصراحتها المعهودة :
ـ بلى !
ـ وهل مازلت بعد كل هذا الذى حدث مصممة على الزواج منه ؟
ـ لست ارى اى وجه كى يحول هذا الذى حدث بيني وبين هذا الزواج !
ورات عندئذ امها تبتسم نصف ابتسامة وتتحسس صفحة وجهها بمنديل مبلل بماء الكولونيا . وكانت جميع نوافذ الحجرة مغلقة اغلاقا محكما . والهواء الساكن الراكد منقل بروائح العطور المختلفة ، التى تختلط فيها رائحة الكافور برائحة الياسمين وغيره من الازهار العاطرة . وكانت مارجريت تكره هذا الجو الثقيل على الصدر . وكذلك كيم كان يكرهه جدا
وتمنت مارجريت أن تدخل ليلى عليهما لان ذلك من شانه ان يضع حدا للمناقشة . فهى لا تشعر بالرغبة فى مناقشة امر فيليب مع اى انسان . ولاسيما مع امها . ولكن امها استانفت فجأة اسئلتها من زاوية اخرى :
ـ هل اخبرك الدكتور فرجيسون يامارجريت بسبب فاة ابيك ؟
ـ قال لى انه شلل فى المخ

، ما تظنين انه كان السبب فى ذلك الشلل ؟

،ال الدكتور فرجيسون ان السبب ربما كان قلقه الشديد ، رغبته البالغة للوصول الى البيت بسرعة اثناء العاصفة

انه القلق او الانزعاج على كل حال . هل اقر لك بهذا ؟

نعم

ادن استطيع ان اخبرك عن انزعاج اعظم بكثير مما تتصورين . ... حدث له هذا الانزعاج قبل وصوله الى البيت مباشرة

،قالت الام الى الامام فى مقعدها ولبثت صامتة لحظة ولكن مارجريت لم تتكلم . وعندئذ قالت الام :

لقد راى صديقك لوفل

ا،هل ؟ ... وكادت عيناها العسليتان تقفزان من محجريهما وهى تسال :

راه ؟ ماذا ... ماذا تعنين بذلك ؟

اعنى بذلك انهما تبادلا الحديث . وكنت جالسة امام نافذتى فاستطعت ان اسمع حديثهما رغم ضجة المطر والرعد . فلى اذنان حادتان كما تعلمين ، ولكن كلامهما كان بصوت عال جـــــدا . . .

هل لم يخبرك لوفل بذلك الحديث ولم يذكر لك شيئا عنه ؟

وسكتت مارجريت فلم تجب . فقالت الام :

لقد قدرت انه لن يخبرك بامر هذا الحديث . لانى لم اتوقع ... ان يكون صريحا معك ، كصراحتك معه !

دعى هذه المسالة الآن يا امى . ولكن خبرينى ماذا حدث بينهما ؟

ساخبرك بكل ما اعرفه وهو ليس بالشىء الكثير : كان والدك ... بسرعة الى البيت عن طريق باب المطبخ ، وكان لوفل معـــه ، ولا بد انهما تقابلا قبل هذه اللحظة . ولم اسمع بوضوح ماذا كانا يقولان . ولكن كان من الجلى انهما يتشاحنان . وكان من الجلى ايضا ان موضوع المشاحنة هو انت

انا ؟

هل هذا يدهشك حقا ؟

خبرينى .. خبرينى اى نوع من التشاحن كان هذا ؟ هل كانا ... مجرد مجادلة ؟

ـ لا استطيع ان اجزم بهذا . وعلى كل حال ينبغى ان اكون منصفة لصديقك . اليس كذلك ؟ ولكن اذا كنت تريدين أن تعرفى القصة كلها فلماذا لا تسالين لوفل نفسه عما حدث فعلا ؟

ـ سأساله . سأساله . وانا اعلم انه سيفسر لى كل شىء

ـ بلا شك . ولكن بعد ذلك . عندما يكون قد فسر لك كل شىء فلك ايضا ان تسالى نفسك ان كنت تصدقين هذا التفسير

وقبضت على قبعتها ومعطفها وخرجت تجرى من البيت الى الحدائق لانها أحست باحتياجها الشديد للهرب الى الهواء الطلق. ونادتها ليلى من احدى النوافذ وسالتها اين هى ذاهبة . فاجابتها مارجريت :

ـ لا ادرى !

فاجابتها ليلى بشيطنة :

ـ اظنك ذاهبة لمقابلة صاحبك مستر لوفل على المحطة ؟

فراقت لها هذه الفكرة وقررت ان تذهب لمقابلته على المحطة . ثم تساله عن ذلك الموضوع بغير لف ولا دوران

وانتظرته على رصيف المحطة . وكان من المؤلم لها جدا ان يذكرها منظره بابيها . فهو يشبهه جدا فى البنية والسحنة . وفيه تفتحه للحياة . ولم يحمل معه الا حقيبة صغيرة . فلما اقترحت عليه العودة الى البيت سيرا على الاقدام بطريق مختصرة تخترق الحقول وافق على الفور

وتحدث فى بداية الامر فى موضوعات شتى . موضوعات عامة مثل برمنجهام وحالة الجو وآخر الانباء الواردة من جنوب افريقيا . وكانها كانت تختبره كغريب قبل أن ترفع الحجب بينهما . واحست أنه يتهيبها قليلا . اما هى فكانت اكثر من متهيبة مما ستقدم عليه. وكادت نفسها تراودها الا تفاتحه ، وأن تترك الامور كما هى يكتنفها الغموض . ولكن ما ان اختفت عن انظارهما اضواء القرية واوغلا بين الحقول حتى أسرع يضمها اليه ويقبلها . فكانذلك هو الحافز القوى لها على المصارحة . فقالت له وهى تدفعه عنها :

ـ يافيليب . انى اريد ان القى عليك بضعة اسئلة . فهل تجيبنى عنها ؟

فقال لها على الفور :
ـ طبعا . سلى اى سؤال شئت ولكن قبلينى اولا !
فابتسمت ان مرحه مصطنع وقالت له :
ـ كلا كلا ... اريد يافيليب ان تخبرنى ماذا حدث بينك وبين ابى ليلة وفاته ؟
وشعرت به فى الظلام وقد اخذ بالسؤال وابتعد عنها . فعلمت بغريزتها ان امها صدقتها القول . ولكنها مع ذلك لبثت تنتظر رده على سؤالها بهدوء . واخيرا صاح متعجبا :
ـ يا الهى ! ماذا تعنين بهذا السؤال ؟
ـ لا اعنى شيئا . كل ما هنالك انى اطلب منك ان تذكر لى الحقيقة كاملة . لقد التقيت انت وابى ليلة وفاته . اليس كذلك ؟ وحدث بينكما جدل او نقاش بشانى . واريد منك ان تخبرنى عن هذا النقاش
فتبدلت حالته فجاة . وفارقه المرح وظهر عليه اليأس . وقبض على ذراعها وصاح قائلا :
ـ مارجريت ! لم يكن الذنب ذنبى يا مارجريت ... اقسم لك على ذلك ... لم اكن اعلم انه عليل بهذه الصورة !
فنظرت فى الظلام الى ملامح وجهه المعتمة وقالت :
ـ انا لا اتهمك بشىء ...
والحقيقة ان صوته كانت فيه نغمة لم تستطع احتمالها . ولهذا حرصت على أن تكون هادئة كل الهدوء :
ـ .. كل ما أريده ان تخبرنى فى بساطة وهدوء بكل ماحدث !
ـ اقسم لك أمام الله يا مارجريت انه لم تكن لدى فكرة ...
ـ اعلم هذا . ولكن خبرنى بما حدث
ـ انى ... اشعر بخزى شديد ... جدا
ـ تكلم !
وتكلم بلهجة عرجاء متعثرة فقال لها أن اباها دخل عليه المرسمة وسط العاصفة وساله بلا مقدمات : « ماذا بحق الشيطان تقصد من تمسحك بابنتى ؟ » وكان واضحا ان هناك من حذره بشاننا . فقلت له حقيقة علاقتنا بحذافيرها . فثار ثائره وسبنى ونعتنى

فيما نعتني به باني انتهازي ... فاخرجني ذلك عن طوري . وكانت اعصابي مرهقة جدا بعد ان ظللت ست ساعات احاول عبثا أصلاح كسر في الآلة . فضلا عن جو العاصفة المشحون بالكهرباء . آه لو كنت اعلم انه مريض !

ـ اكمل . ارجوك ان تكمل

وظل يصرخ باعلى صوته انني وغد . وانني اسات استغلال كرم ضيافته وما الى ذلك . وعندئذ ... عندئذ قلت له اذهب الى الشيطان . اعترف بهذا . والحقيقة انني لم اكن اعلم ...

ـ نعم نعم . اعرف ذلك . ولكن اذكر لي بقية ما حدث

ـ بعد ذلك ... ضربني .. باقصى قوته ... و ... فضربته !

ـ انت ضربته ؟

ـ وكيف كان يمكنني ان اعلم يا مارجريت ؟ انه كان يبدو ضخما قويا . حتى انني كنت اعتقد في اعماق نفسي انه اذا حدث بيننا شجار سيغلبني بقوته الفائقة ... ومع ذلك بمجرد ان لكمته . ولم تكن اللكمة قوية جدا ادركت ان به شيئا . فاخذ يترنح خارجا تحت المطر ، واتجه الى البيت . فتبعته لاني قدرت انه ربما اغمى عليه ، واحتاج لمساعدة . وظل طول الطريق الى المطبخ يصيح ويسبني . وربما اكون اجبته بمثل صياحه وسبابه ... لا ادرى ولا اذكر . لان حالتي كانت في منتهى الفظاعة . ولما دخل البيت جريت عائدا الى العريشة . هذه هي الحقيقة . الحقيقة الكاملة بحذافيرها . ولا يمكنك ان تتصوري شعوري بعد ذلك عندما بعثت في طلبي ، ووجدته راقدا هناك في قاعة البلياردو

واحست انه يوشك ان ينهار . فسكتت ولم تتكلم فاستطرد بحرارة :

ـ يا مارجريت . اتكرهينني لهذا السبب ؟ وكيف كنت استطيع ان اعلم انه مريض ؟ ان والدتك تكرهني كما اعلم . وفرجيسون يرتاب في أمري . ولكن لابد انك انت تثقين بي . يجب . يجب !

فقالت وهي تشيح بوجهها عنه :

ـ فلنحاول ان نعالج الامر بهدوء يا فيليب . وانت طبعا لم تكن تدري ان والدي مريض . هذا شيء مفروغ منه . وفرجيسون

اخبرنى فعلا ان وفاته كانت متوقعة بصورة فجائية فى اى وقت ، وان اى سبب كان كافيا لذلك

ـ اى سبب ... ولكنك تعتقدين اننى كنت السبب ؟

ـ على هذا الاساس اعتقد انك كنت السبب . ألست تدرى ذلك؟

سألته السؤال بهدوء تام ، ولكن الموقف كان شديد الوطأة عليه ، فقال وهو يلهث :

ـ يا الهى ! هل يمكن ان تصفحى عنى ؟

اجابته بهدوئها الراسخ :

ـ لقد صفحت عنك بالفعل يافيليب . غفرت لك هذا الذى صنعته به

ـ اذن هناك شيء آخر ؟

ـ نعم . انا لا ادرى لماذا لم تخبرنى بكل هذا بمجرد حدوثه !

وساد الصمت فترة . ثم قال :

ـ كان ينبغى ان اخبرك . اعلم هذا . ولكنى خشيت ان اسبب لك الالم

ـ ولكنه الم اقل بكثير من المى لانك لم تصارحنى

ـ ظننت انك لن تغفرى لى لو علمت

ـ كان ينبغى ان تجازف !

ـ هذا صحيح

ـ لقد اخطأت يا فيليب اذ لم تخبرنى ...

ولم يعد صوتها هادئا . بل كان يختلج بالانفعال :

... كان من الخطأ ان تجلس الى جوار فراشه فى ساعته الاخيرة ، بعد هذا الذى حدث بينكما . وانت تذكر كيف نطق اسمك وهو يلفظ نفسه الاخير ؟ كان لا يزال غاضبا عليك عندئذ .. وكان ينبغى الا تكون هناك

ـ ظننتك تريديننى ان ابقى معك

ـ وهل كنت تظننى اريدك ان تبقى معه لو اننى كنت اعلم الحقيقة؟

ـ كان ذلك جبنا منى . اعترف بهذا يامارجريت . لم توانى الشجاعة على اخبارك بعد الذى حدث !

ـ او لم توانك الثقة بى ؟

ـ كلا كلا ليس هذا هو السبب

فسكتت واستمرت فى السير غير مكترثة بانكاره · فقال بعد قليل :

ـ وكيف اكتشفت المسألة بامارجريت ؟

ـ سمعت امى جانبا من المشاجرة . لانها كانت عند نافذة الحجرة الغربية

ـ استطيع أن اتخيل ما قالته لك عنى

فشعرت على الفور ولاول مرة فى حياتها فيما تذكر بشىء يجذبها الى الدفاع عن امها فقالت :

ـ لقد كانت منصفة جدا فى الواقع . ثم انها لو لم تسمع جانبا مما حدث عفوا لما عرفت انا الحقيقة اطلاقا . اليس كذلك ؟

فاجابها بشراسة :

ـ انك مازلت توبخيننى يا مارجريت : انك تكرهيننى بسبب ما فرط منى ! انى اسمع هذا فى نبرة صوتك وفى كلماتك · ولا اظن انك سامحتنى ولا تستطيعين ان تسامحينى

وازعجها قوله . لانه كل من بقى لها فى الحياة وحبها له هو السند الوحيد الباقى لها . فتعلقت به فجاة وضمته بشدة اليها ، وراحت تقبله بحرارة . كانت تريده . وتحن اليه . ولكن جوع جسدها طغى عليه جوع آخر هو جوع روحها . فقالت وهى تلهث مرتجفة بين ذراعيه :

ـ تزوجنى بربك . تزوجنى بسرعة يا فيليب. وبعد ذلك نستطيع ان نلقى بهذا كله وراء ظهورنا . وساصفح وانسى هذا كله عندما يضمنا بيت واحد ، وتصبح انت زوجى العزيز ! تزوجنى بسرعة يا فيليب . فانا لا اطيق ان اعيش فى هذا البيت العتيق الان . واريدك اكثر مما اردتك فى اى يوم مضى يافيليب . . .

فعانقها بحنان وهيام . وقد الهبت عواطفه حلاوة مفاتنها الجسدية ، ورائحة شعرها العطرة ، وبضاضة شفتيها الحارتين :

ـ نعم نعم ، سريعا ، باسرع ما نستطيع . ولكن لا مال عندى كما تعلمين

ـ انا لا ابالى بهذا . ساعمل . سيعمل كلانا بكل جد . وساعيش معك فى احقر كوخ فى برمنجهام واحس اننى فى الجنة !

ـ لن يطول بك هذا الاحساس . وسرعان ماتكتشفين أن الافلاس ابعد ما يكون عن حياة النعيم التى تتخيلينها

ـ اذن دعنى اكتشف ذلك بنفسى . ولابد انى ساكتشفه على كل حال لانه لن يكون لى مال حتى ولو بقيت فى الدار ولم اتزوج

فبدا عليه الاهتمام الشديد وهو يقول متعجبا :

ـ اوه !

فسردت على مسامعه دقائق الموقف بعد فتح الوصية ثم قالت :

ـ فنحن اذن على قدم المساواة الآن . وينبغى أن نواجه الواقع . وانا واثقة انك ستغدو شهيرا فى يوم من الايام . واثقة بهذا ثقتك انت به . واريد ان اعينك واعمل لك . فخذلى . خذنى معك حيث شئت . وفورا ...

ـ انت رائعة !

وكان يعنى بهذا دفء شفتيها وضوء القمر الذى ينعكس على الدموع المترقرقة فى عينيها وهما يستانفان المسير

وكانت امها جالسة تقرأ فى حجرتها عندما صعدت اليها لتحييها تحية المساء . وكان كل ما قالته لها امها :

ـ اذن فانت قد اتيت به ثانية يا مارجريت ؟

ـ نعم

ـ هل سيقيم طويلا ؟

ـ بضعة ايام . ريثما يحزم امتعته

ـ وهل اخبرك بالحقيقة ؟

ـ نعم

ـ وهل طابق كلامه كلامى ؟

ـ نعم

ـ اوه ؟ هل اعترف بكل شىء اذن ؟ وماذا فعلت انت ؟

ـ صفحت عنه !



الفصل السابع

اكتشاف

لم تر مارجريت فيليب كثيرا جدا كما هو منتظر في الايام القليلة التالية . لانه كان يقضي الوقت في العريشة مشغولا بحزم آلته وادواته . وهي ايضا كان لديها عمل كثير جدا يشغل معظم وقتها . وكان لغز شخصية والدها الحقيقية لم يزل مستوليا عليها . فاغراها ذلك بالاقدام على فحص طويل دقيق بين أكداس كثيرة من الخطابات والاوراق التي خلفها وراءه

كانت مارجريت تخصص فترات الصباح لهذا البحث . ولم تخبر والدتها بشيء عنه لان الفكرة في ذلك كانت فكرتها وحدها . ولم يسفر البحث في اول صباح عن شيء سوى الكشف عن وسائل ابيها المضطربة المتسمة بالفوضى في ادارة اعماله . وفي الصباح الثاني وقعت يدها على آثار عهد اقدم من ذلك فتكشفت لها دلائل اسرافه واندفاعاته المتنوعة ...

أما اليوم الثالث فاكتشفت فيه خطابات كثيرة من نساء ... وكان عدد هذه الخطابات عشرات بل مئات مكدسة على غير نظام في قاع درج من ادراج مكتب قديم له . ولم تقدم على قراءة هذه الخطابات في مبدأ الامر لان مطالعة هذه الخطابات جعلتها تجفل من التطفل على شئون تبدو عليها الصبغة الشخصية والخصوصية بصورة واضحة ثم قرات خطابا او خطابين منها ولم تستطع ان تمضي في القراءة اكثر من هذا .. لان السطور بدت لها غير معقولة وتفوق مضموناتها اشد تخيلاتها اسرافا . ومع هذا لم يكن هناك مجال للخطأ في التأويل . فتواريخ الخطابات واختام البريد على مظروفاتها كانت دليلا دامغا على صدقها وواقعيتها

ولم تدرك المغزى الذى تنطوى عليه تلك الخطابات فى البداية . ولما ادركته تألمت لذلك ألما فظيعا . ألما شديدا كألمها عندما اكتشفت ... فيليب . بيد أن ألمها فى هذه المرة أعمق وأكثر حدة حتى لقد شعرت بغثيان . فخرجت الى الحديقة وهامت على وجهها بين خمائلها نصف ساعة وهى تحاول ان ترتب ذهنها ، وتستوعب أطراف المسالة حتى لقد كانت فى النهاية تشك فى وجودها نفسه لفرط نفورها من الامس بواقع هذه الامور

وخرجت بالنتيجة التالية : انه لم يكن هناك وقت تعيه ذاكرتها ... ولادتها او قبل ذلك الى زمن قريب جدا ، لم يكن فيه لوالدها ... وظل الحال على هذه الوتيرة تلك السنوات . بل لعل الحال كان كذلك منذ ولادة أخيها الاكبر بومى . فكانت هناك دائما امرأة فى مكان ما على صلة بأبيها

وكثير من هذه الخطابات خطابات حب وغزل . وكثير منها ايضا لم يكن سوى مذكرات قصيرة لتحديد مواعيد الالتقاء او أمكنته وما الى ذلك . ولكن جميع الخطابات تقريبا كانت تحوى من التفاصيل ما لا يدع مجالا للشك فى نوع هذه العلاقات الغرامية ..

واحدى هؤلاء النساء كانت تعيش فى بروكسل وتكتب رسائلها ... فرنسية عامية مبتذلة . وامرأة غيرها كانت لندنية لم تجد مارجريت بدا من الاعتراف بما فى رسائلها من دلائل على ذكائها ... شخصيتها . وكان هناك شىء مشترك بين جميع الرسائل التى ... جميع النساء ، وهذا الشىء هو هيامهن بأبيها هياما يبدو قويا ... لاغش فيه

وانتهى الغداء وهى فى حالة شبيهة بالحلم . وكان فيليب وليلى يتحدثان معظم الوقت على المائدة . وبدا واضحا ان ليلى مشغولة به ... محاولة اليائس أن تتظاهر بالاهتمام باشد مشكلات الهندسة الميكانيكية تعقيدا وغموضا .. وبعد انتهاء الغداء عادت مارجريت الى المكتب . فقد كان عليها ان تصل الى قرار فى هذه الخطابات ، وماذا تصنع بها

هل تجمع شتات هذه الخطابات فى عناية وتخفيها فى مكان ما الى ان تعمل الصدفة عملها فى يوم من الايام فتعثر بها يد شخص آخر

بعد سنوات طويلة ؟

كان أكثر ميلها الى القضاء على تلك الخطابات قضاء تاما • فهى قد استخلصت منها الحقيقة عن ابيها ، وليس من المحتمل أن تنساها ما عاشت • نعم يجب ان تعدمها اعداما !

واخذت تجمع الخطابات بالعشرات فى كل مرة وتلقى بهـــا الى نيران المدفأة • واستغرق احراقها وقتا طويلا • وكانت الحرارة فى ذلك اليوم الحار من شهر يونية خانقة . وعندئذ ، وهى مـــستغرقة فى عملية الاحراق انفتح باب المكتب ودخلت أمها يدفع مقعدهـــا المتحرك مينشن !

وكانت لحظة عصيبة ..

ووقفت مارجريت وظهرها الى المكتب المفتوح تحملق ببـلاهة عبر الحجرة نحو الباب • وابتسمت مسز فرينشام ابتسامة صـــغيرة غامضة واوما ت براسها تصرف مينشن • فلما انصرف قالت :

ـ اذن فانت تقومين باحراقها يا مارجريت ؟

وبعد برهة صمت قالت مارجريت :

ـ انى أتخلص من بعض خطابات ابى القديمة • فهناك خـطابات كثيرة جدا •• ولا اظن أنها تستحق مئونة الاحتفاظ بها

ـ اوه • كلا • كلا بالتأكيد • واعتقد أنك تصرفت بحكمة • كل الحكمة . ولكنك نسيت مبلغ ما اتمتع به من دقة الملاحظة • فليس لدى ما افعله طول النهار سوى الجلوس فى مقعد والاخلاد الى التفكير والمطالعة والمراقبة • وقد عرفت طول الوقت ماذا تصنعين • لقـــد كنت هنا امس صباحا • اليس كذلك يا مارجريت ؟

ـ هذا صحيح

ـ والصباح الذى قبله ايضا ؟

ـ نعم

ـ لقد ادركت ماذا وراء ذلك • فلما ابصرت الدخان يتصاعد من المدخنة فى هذا الحر الشديد علمت أن تقديرى كان صائبا •• نعم يا مارجريت • انت حكيمة جدا وكتوم • لقد احسنت صنعا

ـ أماه •• لا ادرى ماذا تقصدين بهذا الكلام بالضبط !

ـ ولكنى واثقة كل الثقة أنك تدرين ماذا أقصد • ان المحـــامى

ا ام الام بريد ان يقتحم هذه الحجرة ويجرد محتوياتها وياخـــذ
ي ما من الخطابات . ولكني اخبرته انه من الخير ان يتركك
... ملها
الا ى مازلت اجهل .. لست واثقة ..
... انك لست واثقة من انني اعرف . اعلمى اذن انني اعرف
م ا ان ... لك اني لم اقرأ هذه الخطابات . لانني كنت دائما افتقر
ال ... بامرها ..
اماه . ليتك تكلمينني بوضوح
... كلمتك بوضوح وصراحة . اما الآن فاجلسي والرغي من
... اليها . وقربي مقعدي من المدفأة . فاني اريد ان أدفيء نفسي
... هذه الرسائل !
... مارجريت . لانها وجدت راحة في انهاء هـــذا الموقف
... الانصراف الى عمل ما . وركعت على الارض ودفعت ببقية
... حفنة حفنة تدسها في النار وهي صامتة
الان يا مارجريت ما رايك في ابيك ؟
... السؤال معلقا في الصمت حتى ثقل به هواء الحجرة الحار ،
... رائحة العطر الذى تتضمخ به امها ، وبشــــماع الشمس
... . ورماد الورق المتطاير ، حتى اوشك الغثيان والاغمـــاء أن
... عليها . ولاول مرة في حياتها روادها الشعور بأن الحياة في
... لا تستحق عناء العيش على الاطلاق .
... اجابتها بقولها :
لا أدرى
... كانت صدمة لك بلا شك
... عينيها الى امها وقد ارتسمت فيهما الحيرة وقالت :
اماه . انى أشعر باعياء كلما فكرت في هذا . هل هذا صحيح
. ... يخيل الى دائما أنني في حلم ، وان ما عرفته غير صحيح !
الا يا ابنتي . لست حالمة . وانما انت قد استيقظت لتوك
... الطويل !
... ؟
... تبدئين اليوم باكتشاف الكنه الحقيقى للحياة !

ـ ان كان كنهها أشياء من هذا القبيل · فخير منها الموت · انى اذن قمينة أن أفضل الموت

ـ تفضلينه على مواجهة الحقيقة ؟

ـ أماه لا طاقة لى على الجدل الآن · ولكنى اشعر انـه اذا كانت تلك الحقيقة شاقة على الآن ، فكيف تراها كانت بالنسبة لك طوال تلك السنوات ·· طوال ذلك الماضى ؟

ـ لا تهتمى بهذا · فقد تعودته · وعشرون عاما يا ابنتى زمن كاف كى يألف الانسان أيما شىء

ـ عشرن عاما ؟ منذ ولادتى ؟

ـ بل وقبل هذا فيما أعلم · كان داء ملازما له

ـ داء ؟

ـ نعم ·· داء العجز عن الاقلاع عن مخـادنة النســاء وهو داء تنتشر اعراضه بين الرجال كما تعلمين · ولكنك طبعـا لا تعلمين فانك قد بدات اليوم فقط تتعلمين ·· نعم يا ابنتى · كان أبوك رجلا لطيفا فاتنا حنونا سخيا · كانت فيه كل الصفات التى يمـكن أن يتمناها كل انسان ·· ما عدا الزوجة !

ـ امى ·· لابد ان الامر كان شاقا عليك جدا · كان فظيعا !

ـ نعم · فى البداية فقط · ولكن بعد المرة الاولى لم يعد للامـر اهمية · فالرجل لا يستطيع ان يؤذيك من هذا الطريق الا مرة واحدة فانك لا تستطيعين ان تغفرى له ذلك حتى وان قلت أنك قد غفرت له وتتوقعين دائما بينك وبين نفسك ، آن يحدث منه هذا الشىء نفسه مرة فى كل وقت · وحينما يحدث ـ وهو عادة يحدث ـ تجدين أنك غير مكترثة لحدوثه ··

ـ وفى حالته هو ·· يتكرر الحدوث ؟

ـ كثيرا جدا · حتى أننى لم أعد أحصى الاحداث !

ـ ولكن ما افظع هذا ! لابد ان الناس عرفوا ··

ـ اوه · كانوا يعرفون · كانت علاقاته حديث لندن كلها · ولكنه كان يمنى نفسه بأنى ربما كنت لا اعرف · ولا سـيما حين لا أثير ضجة · فقد كان يكره الضجة · ويكره الشجار والخصام وكل ما هو من هذا القبيل · لقد كانت افكاره بسيطة جدا · بصورة عجيبة

. .. ٨ عندما تحدث منذ مدة قريبة عن الاقامة هنا بقية حياته .
. الاعتقاد بانني سارحب به اخيرا وأنا مفتوحة الذراعين ! لقد
... لا لطيفا . لطيفا جدا !

.. ان هذا هو اعتقادى فيه دائما !

.. نعم . وكان اعتقادك هذا بريحه . اما انا فلم يكن اعتقادى
.. بريحه . ولذا كان ينأى بنفسه دائما عنى . ويستريح لابتعادى
.. من طريقه . وكان مرضى طبعا حافزا للناس على زيادة عطفهم
. . . .

.. انى . لا استطيع أن اتحمل سماع كل هذا

.. ولكنك يجب أن تسمعى كل هذا .. لانها الحقيقة . انى
.. ان تعرفى طرفا من الاشياء التى يستطيع رجل من طرازه أن
... من غير ان يشعر بانه يقترف خطأ خاصا . كان والدك
.. الاحساس بالخطأ . كان يعتبر نفسه دائما كالتلميذ الشقى
... يسعى ان يغتفر الجميع له هفواته . وفعلا كان الجميع يغتفرون
.. هفواته . ولعلهم كانوا يظنونه يفعل ماهو طبيعى أن يفعله رجل
.. بالاعلال الى زوجة عليلة مثلى . ولم يعلموا أننى بعد أول مرة
.. أول اكتشاف .. حدث لى انهيار عصبى تركنى مقعدة .. على
هذا النحو

.. اماه !

.. كان ابوك شديد القلق على . وشديد الحدة أيضا .. لان
.. المسكين لم يستطع أن يدرك ما هو السبب الذى أدى بى الى
...

.. بعد قليل سالتها مارجريت :

.. هل بومى يعرف كل هذا؟

.. نعم . انه يعرف . ولكنى لم اخبره

.. مادا ترى كان شعوره ؟

.. لابد ان شعوره كان كشعورى .. وهو ان الزواج على الجمله
.. مطمع وحقير . واولئك النساء اللواتي عاشرهن ابوك كن اسعد
.. الحياة منى . لانهن حصلن منه على كل شيء فيما عدا الوفاء
.. لم يكن ينتظرنه منه . وهى حياة لا بأس بها بالنسبة لامرأة

يمكن أن ترتضيها . اما من هن مثلى ومثلك ..
وقطعت عبارتها وسكتت قليلا ثم قالت :
ــ لا تتزوجى يا مارجريت .. لانك تنتظرين ممن يتزوجك أكثر مما يستطيع أن يمنحك اياه
ــ ولكن هناك بالتأكيد رجال . فريق من الرجـــال على الاقل فى طبيعتهم صدق ؟
ــ اظنك تفكرين فى فيليب ؟
ــ نعم افكر فيه !
وومضت عيناها وهى تقول ذلك
ــ ... الست متفقه معى فى الرأى يا أماه ؟ أنا أعلم أنك لا تحبينه ولكن الا تظنين انه طراز الرجل الذى يخلص للمرأة التى يتزوجها ؟
ــ ليس ان تزوجك أنت !
ــ لماذا ؟
ــ لانه لا يحبك يا مارجريت انه مفتــون بك فقط . أولا لانـــك بذلت قصارى جهدك لتحمليه على ذلك . وثانيا لانه لم يجد شيئـــا آخر يشغل به فراغه فى المساء وهو هنا . ان اهتمامه الحقيقى موجه فى المقام الاول الى عمله . كل طاقته مصروفة فى هذا الاتجاه . كل قوته . أما ما تبقى منه وهو ضعفه ، فذلك ما قد يمنحـك أو يمنح سواك اياه . انه يذكرنى بابيك من وجوه كثيرة
ــ نعم نعم من بعض الوجوه . أعلم هذا ولكنه لا يشبهه فى هذا بالذات . انه مخلص . أنا أعلم أنه مخلص واثق به كل الثقـة ! انى اومن به كما اومن باى شىء فى الدنيا !
وترنحت واقفة على قدميها ، وهى تشعر ان الدنيا كلها قد اختلطت معالمها أمام وجدانها ، فلم تبق لها الا الثقة بفيليب . انها يجب أن تثق به . يجب والا فلن تجد شيئا تثق به فى الدنيا !
وغمغمت قائلة لامها وهى تلتمس طريقها الى الباب :
ــ انى أشعر بالاغماء . وسأخرج يا أمى لالتمس الهواء . وسارسل اليك مينشن



ورأت فيليب تلك الليلة . وهى الليلة الاخيرة قبل رحيله . لانه

كان مزمعا ان يسافر فى قطارمبكر • وكانمن المفهومانهما سيتبادلان الرسائل كثيرا وسيلتقيان ثانية بمجرد اعداد العدة لذلك

ولم تكن لديه خطط معينة سوى أنه قد يمكث فى برمنجهـــام • فكل شيء يتوقف على عثوره على شخص يمكن ان يهتم بآلته الجديدة وهي كذلك لم يكن لديها اى تفكير محدد • فلم يكن فى وسعها سوى الانتظار الى أن تستقر امور تركة ابيها • فان آل اليها شيء ولو قليل من المال مثل ايراد سنوى يبلغ مائة او مائتى جنيه ، فسيكون ذلك كافيا لتمكينها من الزواج من فيليب ومساعدته فى اختراعه • أما اذا لم يؤل اليها شيء على الاطلاق فانهما سوف يتزوجان ويخـــاطران بمواجهة الحياة فى شجاعة فهذا ما كانت هى مستعدة له ، موطنـة النفـس عليه . وظلا فى الليل يتجولان بين خمائل الحديقة التى يفوح عطر ازاهيرها فيعبق الهواء الندى • وجعل يقبلهـا • يلثم فاهــا وشعرها ووجنتيها وجيدها • ولكنها كانت تريد أن تتكلم • تريد ان تتكلم عن المستقبل ، وتحدثه عن تلك الاشياء التى يمكن أن تزيدهــما قربا وتزيد صلتهما توشجا . ولكنه ظل يقبلها . فتركته غير مبالية مايصنع . وغفرت له ذلك فى يسر ، لان الرجال كما تعلم هكذا خلقوا ولكنها تريد أن تتكلم وهو يريد أن يقبل بلا انقطاع • ولتعـــارض رغبتيهما ظل يتهمها بانها لا تحبه

ــ انك غريبة الاطوار الليلة يامارجريت . لست كعادتك . انت الليلة باردة كالثلج ••

فقالت له بهدوء وبساطة وبلا انفعال :

ــ انى أحبك أكثر مما مضى يا فيليب !

ولكنها كانت تعلم انه لم يفهمها . واخيرا تركته يفعل ما يشاء ومع هذا ظل يشكو من برودها ••

وكانت متعبة عندما عادت الى البيت • فصعدت على الفور الى حجرة امها لتحييها تحية المساء • ولم يكن الوقت متأخرا • فلم يزل بينهــا وبين منتصف الليل نصف ساعة ، ولكن امها كانت قد نامت فوقفت ترقبها وهى راقدة . ولمحت مارجريت صورة الجمــال الذى ذوى . واحست بالجريمة الفظيعة الغريبة التى اقترفها أبوها حين حـــول ذلك الجمال الى مرارة • وانحنت فقبلت فى أسى عينيها النائمتين ، ثم

هبطت السلم مرة أخرى على نية التحدث الى فيليب بعض الوقت · فهى ليلته الاخيرة · وربما ليلته الاخيرة اطلاقا فى هذا البيت

ولما وصلت الى البهو رات باب حجرة الجلوس نصف مفتـــوح · ومن داخلها جاءها صوت ضحك ولغط حديث ·· صـــــوت فيليب المتحمس الاجش وصوت ليلى الطفل الحاد · وكان فيليب قد قال لها شيئا اضحكها ، فاجابته بشيء من نفس الاسلوب

وكانت مارجريت وهى تعبر البهو تراهما بوضوح من خلال فرجة الباب · وكانت ليلى مضطجعة فى استرخاء فوق الاريكة القريبـة من النافذة . وكان فيليب واقفا بالقرب منها منحنيا نحوها قليلا وهو يبتسم · وفجأة انفجرت ليلى تهتز بالضحك · فقـال لها شـــــيئا همسا · لابد انه كان تحذيرا من ارتفاع صوتها ، لانها اجابته بغير مبـــالاة :

ـ اوه · لا يمكن أن يسمعنا احد ·· فمارجريت فى الطابق العلوى الآن مع امى · ولا يمكن أن تعود بهذه السرعة

وعندئذ انقض فيليب بسرعة البرق والصق فمه بفمهـــا فطوقت عنقه بيديها

وتراجعت مارجريت فى صمت وسارت مبتعدة · فلم يعد هنـاك ما تريد أن تراه أو تسمعه · وصعدت السلم مرة أخرى واغلقت عليها باب حجرتهـــا

كانت هادئة تماما · اشد هدوءا مما كانت فى اى وقت من حياتها ··· لقد كان الذنب ذنب ليلى على الخصوص · لانها كانت تشـجع الرجال دائما على مغازلتها · ولكن ليس المهم الآن ذنب من هذا · فلا قيمة للامر كله · كل ما هناك انها تشعر الآن بان فى الدنيا اشـياء ـ وهذا الامر من بينها ـ لا يمكن احتمالها · لانها مستحيلة

وبعد قليل خلعت ثيابها وبدات تبكى · انها تحبه كثيرا جـدا · وهى تعلم أنه لم يقصد سوءا · فهو فى هذا على شاكلة ابيها تماما ··



وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى كان ضوء الشمس يتسلل اليها حين جلست الى مائدة زينتها الصغيرة وتناولت ورقة وقلمـــا وكتبت الخطاب التالى بجرة قلم واحدة :

• عزيزى فيليب .

• يؤلمنى كثيرا جدا فى الحقيقة ان أجدنى مضطرة لتسطير هــذا الخطاب اليك • لانى اعلم أنه سيبدو شديد القسوة عليك بعــد كل ما حدث • ولكن لاحيلة لى • لانى اشـــعر ان الواجب يقتضينى أن اطلعك على الحقيقة • فانا لا استطيع ان اتزوجك • وليس هذا لانى لا احبك • وليس هذا ايضا لسبب يتعلق بالمال من قريب أو بعيد بل لانى لا اعتقد اننا سنكون سعيدين معا • انى شديدة الاســـف يا عزيزى فيليب ولا أدرى ماذا أقول لك ايضا • ولكننى سأفكر فيك دائما وأتمنى أن يحالفك التوفيق العظيم فى عملك •••

المخلصة

مارجريت

ورد عليها برجوع البريد برسالة طويلة كتبت على عجــل غـــير متسقة العبارات • زعم فيها ـ بين ما زعم ـ أنها تخلت عنه لانه لم يوطد امر مستقبله بعد • واعترف أنه لم يصادف حتى الآن شـــيئا من النجاح • ولكن هذا ليس ذنبه • ثم ختم خطابه بأن طلب منها أن تقابله فى شلتنهام ان كانت امها ترفض ان يأتى الى البيت • واعرب عن ثقته بان شيئا ما قد اسيء فهمه • ولكنهما يستطيعان التغلب على ذلك بحديث قصير يتم بينهما فى اى مكان

وعلى الفور كتبت اليه الرسالة التالية :

• عزيزى فيليب :

• ينبغى الا تحضر لمقابلتى هنا • واعلم انى لا استطيع كذلك أن اذهب الى شلتنهام . وفضلا عن هذا ينبغى ان توقن بان المقابلة لن تغير شيئا من عزمى • فليس هناك سوء فهم أو سوء تفاهم • وانما هناك السبب الذى ذكرته لك فى خطابى ، وهو اننى لا أعتقد اننـــا سنسعد معا ان تزوجنا • ويؤسفنى انك تظن بى أشياء كثيرة لاصحة لهـــا

المخلصــة

مارجريت •

وعاد للكتابة بأسلوب اكثر انفعالا فاتهمها بالغدر به لان اختراعه اكتنفه الفشل حتى الآن . فاعتقدت أنه انسان لا خير فيـــه ولا فى

اختراعه · ثم قال لها ـ فيما قال ـ

« من المؤسف انك لا تثقين بى وليس لك مثل ايمـــان ابيـك بمواهبى واختراعى · »

فكان صدور هذه الاشادة منه الى ابيها · ومنه هو بالذات من دون جميع الناس سببا فى زيادة تصميمها وهدوء نفسها فاجابته :

« عزيزى فيليب :

« انى أقدر شعورك نحو اختراعك وان كنت تظـــن اننى لا اقدر ذلك والحقيقة انى اومن به كما كنت اومن به من قبل · واذا اتضح لى من تصفية التركة اننى أستحق مبلغا من المـــال أيا كان ، فثق أننى سأقدم اليك من هذا المال كل ما استطيع ان أستغنى عنه كى تمضى فى تحقيق اختراعك واخراجه الى حيز الوجود ، كما كان أبى يريد ان يصنع · ولكن لا حاجة بنا لان نلتقى

المخلصــة

مارجريت

وجاءها منه بعد ذلك خطاب آخر · خطاب ملىء بالسخط والاتهام فاجابته اجابة موجزة :

« عزيزى فيليب :

« لم استطع ان افهم شيئا من خطابك · أو على الاقل لم أستطع ان افهم مبررا لما ورد فيه من عبارات · فان عدت للكتابة الى بنفس الاسلوب فلن تتلقى منى ردا

مارجريت



وكان واضحا انها اغفلت فى هذه المرة كلمة المخلصة او الودود ·

وكتب اليها خطابا آخر ··

ولم ترد !



الفصل الثامن

بعد عشرين عاما

وقف بومى فى قاعة المائدة يضع فى طبق امامه كمية من البيض المقلى المعد للافطار ، وقال لاخته مارجريت :

ـ هذا شىء صغير وجدته صدفة فى احد حوانيت الطرائف فانت مغرمة بالالوان الفنية . ولذا طلبت منهم ان ينظفوه ويرسلوه اليك

وقطعت مارجريت الخيط الذى يضم اللفافة الصغيرة ، ثم فتحت الصندوق الصغير الذى بداخلها وكان على شكل قلب من المخمل الاسود . وبداخل الصندوق فوق الوسادة الصغيرة الحريرية ، رات حلقة من البلاتين بها فص اسود عنبرى اللون فى حجم ثمرة اللوز ... حلية بديعة ملفتة للنظر !

وهتفت مارجريت مبتهجة :

ـ ما اجمله يا بومى ! انه جميل جدا . اليس كذلك ؟ وكم هو جميل منك ان تفكر فى احضاره لى !

ووضعت الخاتم فى اصبعها واخذت تنظر اليه معجبة

ـ ساحبه كثيرا . انظر ! انه يكاد يضاهى لون شعرى !

ـ انه من الحجر الكورنيلى . وهو ليس حجرا ثمينا جدا بالطبع ولكنه مع هذا لطيف وجذاب

وجلس بومى الى المائدة . وهو رجل طويل القامة نحيف مهيب المنظر عن بعد . يبدو انيقا جدا فى ملابس الرائد العسكرى . وكان واضحا انه رجل دقيق فى حركاته انيق رقيق فى عاداته الشخصية . ومنظره لا باس به بالنسبة لسنه . وان كانت ذقنه اصغر قليلا جدا مما ينبغى وانفه اكبر قليلا مما ينبغى . وفى مقابل هذا كان لون

بشرته ناضرا كبشرة الصبيان . وتكوين راسه جميلا . وعيناه لونهما مزيج من الرمادى والبنى . وشعره شبيه بشعر مارجريت ، ولكنه خال من ذلك الطيف النحاسى . فهو احمر اللون حولت الايام اطرافا منه الى حمرة كالحة تضاهى لون الرمال . اما حين يبتسم ، فهو يبدو فى احسن صوره لان له فما جميلا واسنانا بديعة

وكانت سلة المهملات الى جوار مقعده وبين الحين والحين ، فى خلال الطعام ، كان يفض رسائله بخنجر صغير من العاج ، ويلقى بالمظروفات الفارغة الى السلة . ثم ينظر فى الخطابات نظرة عاجلة ويضعها على احد جانبيه . وكانت مارجريت تفعل مثل ذلك برسائلها ، ولكن بأناقة اقل منه بكثير . وكانت رسائلها قليلة اما هو فكانت رسائله تزيد على العشرين

وقال وهو يفض الرسالة الاخيرة :

ـ لابد ان الناس سيكتشفون عنوانى الخاص ويرسلون الى هنا خطاباتهم المتعلقة بالعمل . وأظنهم يستخرجون العنوان من دليل التليفون وما الى ذلك . وهذا فى الحقيقة مما يبعث على الضيق . فبين هذه الرسائل ثلاث أو اربع كان ينبغى ان توجه الى المكتب

وانصرف الى الطعام برهة . ثم اكل ثمرة من ثمار الخوخ وقال :

ـ تيدى ليستر كتب ينبئنى ان ابنه ستيفن جرح فى آخر معركة كبيرة ... فهل نحن نعرف ستيفن ؟ انا لا اذكر انه زارنا هنا ... لابد ان اكتب الى تيدى على كل حال ... وهناك رسالة موجزة من ليدى هوجان ، تطلب ان يقوم احدنا بافتتاح سوق خيرية فى اليوم الخامس عشر من الشهر . فهل لك ان تقومى بهذا العمل ؟ فانا اكره الاشياء التى من هذا القبيل . اما يينج فيقول انه يقضى وقتا جميلا فى باريس مع رجال وزارة الحربية الفرنسية . وانهم سيمنحونه وساما . وهذا شىء يفرحه كما تعلمين !

وكانت الساعة التاسعة صباحا ذات يوم بديع من ايام سبتمبر وحجرة الطعام تغمرها الشمس المشرقة . والحجرة نفسها بديعة تكسو جدرانها اخشاب البلوط السوداء ، وبها مدفاة ضخمة كثيرة الزخارف

وقبل نهاية الفطور دخل الساقى بصحف الصباح التى وصلت

ى تلك اللحظة فتناول بومى التايمز ، وتناولت مارجريت الديلى • ل . وبعد قليل هتف بومى وهو يرفع راسه عن الصحيفة :

ـ ما اغرب هذا ! هنا نعى لمستر هولباين سميث . فهل هو ..س الشخص الذى قابلناه فى مارينباد سنة ١٩١٠ ؟

ولم تكترث مارجريت وقالت انه ربما كان هو . وتطلع بومى الى ساعة معصمه العسكرية ثم نهض قائلا :

ـ لابد لى من الذهاب اليوم الى المصانع . لانه لابد ان يكون هناك احد فى مدة غياب بينج

واخرج من جيبه الجانبى علبة بديعة من الذهب المزخرف بالميناء واشعل سيجارة مصرية . ثم قال :

ـ لقد نسيت يا مارجريت ان اخبرك عن نبأ آخر تضمنته رسائلى هناك خطاب من قوم عرفتهم منذ سنوات فى سان فرنسسكو هم ال كارول . ويبدو أن ابنهم الوحيد فى الجيش الامريكى المعسكر هنا بالقرب من اكسفورد . وقد اعطونى العنوان ... واظنهم يتوقعون منا أن ندعوه لزيارتنا

ـ اتظن ان ذلك سيضجره ؟

ـ اهم من هذا السؤال بكثير ان نسال انفسنا هل ينبغى أن ندعوه ؟ يمكننا ان نغامر بدعوته على كل حال ، لان آله كانوا مثقفين ومن المنتظر ان يكون ابنهم على مايرام . ولعلنى أرسل اليه اليوم سطرا او سطرين ان تذكرت هذا الموضوع

ووضع التايمز بعناية تحت ذراعه وابتسم لمارجريت ثم خرج الى البهو ، فتناول قبعته وقفازيه وعصاه ، ورد على تحية سائق فى ثياب الانباشى . ثم اتجه الى السيارة التى تنتظره

وهكذا بدا يوم آخر من أيامه المشحونة بالعمل



وفى المساء جلس بومى فى مواجهة مارجريت على المائدة الكبيرة ، وبينهما امتار من التيل الابيض الذى كوى بغير نشا ، مساهمة فى المجهود الحربى للحلفاء . وسالها كالمعتاد :

ـ هل الوالدة على مايرام ؟

واجابته مارجريت كالمعتاد ايضا :

ـ كما هى . وقد اخبرتنى انها ستنزل لمقابلة بينج عندما يعود
ـ اتراها تحب بينج ؟
ـ يبدو هذا
ـ أمن المستحسن ان نقيم مادبة صغيرة ؟
ـ اظن هذا
ـ لن يكون هناك الا بينج وليلى . وربما أيضا ... مسز كلهون والكابتن لورانس !
ـ هذا حسبنا . فالطاهية لن تستطيع أكثر من هذا

واوما بومى الى الساقى ان ياتيه بزجاجة أخرى من نبيذ البرجندى وقال بعد ان ذهب الساقى لياتى بالنبيذ :
ـ هذا المخلوق لا يبدو نشيطا جدا
ـ انه خير مانستطيع الحصول عليه فى الظروف الراهنة
ـ م . م ... بهذه المناسبة قابلت امس مينشن وانا خارج من مكتب البريد فى القرية بعد الظهر فاخبرنى انه بلغ اليوم التاسعة والسبعين من عمره . شىء لطيف . اليس كذلك ؟
ـ الم تعطه شيئا ؟
ـ خمسة جنيهات ... فلم يكن معى أقل من هذا . والحقيقة انى لم اندم على ذلك . فالمؤسسة تحقق ارباحا كبيرة فى المدة الاخيرة
ـ اوه ؟

وعبث بومى بقطعة من الخبز ثم قال :
ـ اطلعت على الارقام اليوم وهى أرقام مدهشة . ويبدو ان الحكومة تغرقنا بالمال . ولاحظت ان بينج يطالب الحكومة دائما باسعار هى ضعف ما ينبغى أن يطالب به فى الحقيقة ... ولا مفر من الاعتراف بانها فضيحة من الطراز الاول ! ولكن يخفف من وقع هذا على نفسى أن الحكومة تسترد الجانب الاكبر من الايرادات فى صورة ضرائب !

واستمر الحديث بينهما على هذا النحو الى ان تناولا القهوة . ثم ذهبا الى قاعة الاستقبال ، وطالعا صحف المساء . وكان اهم الانباء فى تلك الليلة النجاح الكبير الذى أحرزه الحلفاء على خط

هـمبورج . فهـل ترى بدات موجة النصر تنحسر من الالمـان ، وتحول الى جانب الحلفاء ؟

وادار بومى الحاكى فسمعا مقطوعات من شومان ثم ذهبا الى فراشيهما . وكان آخر ما قاله لها عند باب حجرته :

ـ على فكرة ! لقد كتبت الى ذلك الفتى كارول !

ـ ومتى طلبت منه ان يحضر ؟

ـ اقترحت عليه ان يحضر للعشاء ذات ليلة وان يبقى لدينا حتى الصباح . ولكنهم فى المعسكر قد لا يسمحون له بذلك . وعلى اى حال سنتلقى منه ردا

ومرت اربعة ايام من غـير ان يأتيهم رد . وعاد من باريس فى لالها بينج . او فلندعوه باسمه الكامل: الكولونيل اوين بينجلى . وجاء معه من باريس بطلبات عاجلة من سيارات لوفل فرينشام . وحضرت ليلى من بورتسموث . وحددت مادبة العشاء فى ليـلة ٩ سبتمبر . الموافق يوم الاثنين . وقبلت مسز كلهون والكابتن لورانس الدعوة

وبعد ظهر يوم الاثنين . قرب وقت الشاى جاءت هذه البرقية

« حصلت على اجازة وقادم الليلة . شكرا ـ كارول »

وكان بومى فى الحديقة يتفقد ازهاره المحبوبة عنـدما جاءته مارجريت بالبرقية . وقالت له :

ـ هذا موقف محرج للغاية

فاجابها بومى بمجرد قراءة البرقية :

ـ رديه الى معسكره بمجرد وصوله . لا اظن ان هناك مجـالا لتصرف آخر . اليس كذلك ؟

ـ لقد ظن ان الدعوة مفتوحة ، وانه يستطيع ان يختار اى ليلة يشاء . وهذا مؤسف ... وطبعا سيفسد نظام المائدة اذا حاولنا ان تدبر له مكانا عليها

ـ المائدة ؟ هناك يا عزيزتى مارجريت ما هو اهم من ذلك . لا يسعنا باى حال ان نقبل وجوده . فنحن اولا ليست لدينا اية فكرة عن شخصيته . وبفرض انه الطف انسان فى العالم ، فهذا لن يمنع بينج من كراهيته لانه امريكى . . ابرقى اليه اننا لن نكون

فى البيت الليلة. اواى علر من هذا القبيل يصلح لمنصمن الحضور
وارسلت مارجريت برقية بهذا المعنى، وعاد الهدوء الى الاسرة.
وذهبت مارجريت الى حجرتها فى وقت مبكر لترتدى ثياب السهرة وكان عليها ان تقوم برعاية امها، والاشراف على تبديل ثيابها للنزول الى قاعة المائدة . لان الام مصرة على ذلك كى تقابل بينج . وظلت تنتظر هذه الفرصة منذ ايام

وابتسمت مارجريت وهى تفكر وحدها فيما سيترتب على هذا الاصرار ، اذ لا بد من اشعال النار فى مدفاة قاعة العشاء رغم دفء الجو فى ذلك المساء . ولابد ايضا من دفع الكرسى المتحرك الى موضع قريب من النار على المائدة كى يتسنى لها الاستمتاع بالدفء والاستماع الى الحديث والمشاركة فيه بين الفينة والفينة

يالها من امراة مدهشة ! ففيما عدا الروماتيزم الذى لم يزدد سوءا منذ سنوات ، فهى تتمتع بصحة جيدة للغاية . وكان فرجيسون يقول دائما انها لا تشغل نفسها بشىء ، ولذا فمن المحتمل ان تعيش الى ان تبلغ المائة !

وساعدتها مارجريت فى ارتداء ثيابها . وروت لها اثناء ذلك مسالة كارول . ثم تركتها وعادت الى حجرتها لتتم زينتها ، وقد سمعت اصواتا فى البهو ، استنتجت منها ان بعض الضيوف قد حضروا مبكرين . ثم دخلت عليها الخادمة وقالت لها لقد ارسلنى كوكسون ياسيدتى لاخبرك ان هناك جندى حضر لمقابلة الرائد

ولم يكن فى ذلك ما يدعو للدهشة ، فما اكثر حضور الجنود فى مهام لمقابلة الرائد . ولذا استغربت حضور الخادمة بهذا النبا فقالت الخادمة :

ــ والرائد فى الحديقة ياسيدتى ولذا قال كوكسون آنك ربما رغبت فى مقابلته بنفسك لتسالية عما يريد

ــ وماذا عساه يريد ؟ الم يساله كوكسون ؟

ــ اظنه ساله ياسيدتى ولكن الجندى ينتظر فى البهو

ــ سانزل واراه بمجرد انتهائى من زينتى

واسرعت باتمام زينتها ثم نزلت فوجدت جنديا طويلا جدا يتقدم لملاقاتها ويقول لها بهدوء :

ـ اسمى كارول .

ومتفت مارجريت وهى تحملق فيه بغباء :

ـ اوه !

وكان الموقف فى غاية الحرج حقا . فاخوها بومى بعيد عن الدار وسط الحدائق الواسعة ، ومن المستحيل عليها ان تتبادل معه المشورة . وبينج وليل ومسز كلهون قد يصلون فى اية لحظة . والمائدة معدة وجميع الاسماء وقوائم العشاء مكتوبة وموضوعة على المائدة فى اماكنها ... ولاحظت انه يحمل حقيبة صغيرة فى يده اليسرى ، أما يده اليمنى فممدودة نحوها ، فتناولتها بطريقة آلية ، فضغط عليها ضغطة قوية نبهتها من ذهولها . فقالت له وهى تدعو الله ان يتاخر حضور بينج بضع دقائق :

ـ تفضل بالدخول الى قاعة الاستقبال

فوضع حقيبته وقبعته فوق مائدة البهو وتبعها

ـ كان كرما عظيما من مستر فرينشام أن يدعونى . لانى كنت اشعر بشيء من الوحشة فىانجلترا . ومن الجميل أن يجد الانسان هنا صديقا . انت فيما أظن مسز فرينشام ؟

ـ كلا كلا ... انا اخته . اخت الرائد فرينشام

ـ الرائد ؟ لم أعلم انه فى الجيش البريطانى . فى أية فرقة هو ؟

ولم تكن تعلم بالضبط . فلديها فكرة غامضة بأن بومى لا ينتمى الى أية فرقة . فقالت :

ـ انه ليس ضابطا فى الجيش العامل . فهو حائز على الرتبة العسكرية، ولكن مهمته التفتيشفى انحاء الريف على آلاتالطائرات

ـ ياله من عمل مجيد ! وانتم طبعا أصحاب سيارات لوفل فرينشام ؟

ـ نعم

ـ انها سيارات رائعة . وهى ذات سمعة عالية حتى فى أمريكا

وكلمة حتى فى أمريكا هذه من طراز الكلمات التى تثير ثائرة بينج

والقت على وجهه نظرة فوجدته شابا وسيما ذاعينين زرقاوين بلون الفولاذ . ملامحة دقيقة. ويبدو عليه انه من أسرة كريمة وانه تلقى تعليما حسنا . وضغطت على زر الجرس وقالت له بهدوء :

ـ لعلك تحب أن ترى حجرتك ؟ العشاء سيكون بعد نصف ساعة
ودخل الساقي كوكسون فقالت له :
ـ خذ هذا السيد الى الحجرة الصغيرة في البرج

وبعد خروجه مع الساقي اسرعت مارجريت الى المطابخ وتوسلت الى الطاهية ان تعيد توزيع الاصناف كي تكفي لضيف طارىء . ثم خفت الى قاعة العشاء ، ودبرت مكانا سابعا على المائدة بمساعدة الخادمة . وكانت تعلم ان بومي سيضيق بهذا لانه يكره جميع التعديلات المفاجئة ولكن لابد مما ليس منه بد ...

ورات بومي قادما مع الكابتن لورانس فاسرعت اليه واخبرته بما حدث ، فاستاء بومي ولكنها ضحكت وهونت عليه الامر

واقبلت ليلى مع بينج . وكان بينج فخما في كسوة الكولونيل . يختال زهوا . اما ليلى فكانت تحمل آثار وضع آخر اولادها . وترتدي قرطا من الزمرد غالي الثمن احضره لها بينج من باريس . وانتهزت مارجريت الفرصة فشرحت لهما موضوع حضور كارول المفاجىء ، فقال بينج :

ـ سيسرنا ان تقابل اى صديق من اصدقاء بومي . ماذا هو ؟ رائد ؟ ملازم ؟ ام ماذا ؟

ولم تكن قد فكرت في الموضوع من هذه الزاوية من قبل فقالت:

ـ اظنه جنديا عاديا . نفر فيما اعتقد . ان كان في جيش هؤلاء الامريكان انفار !

فضحك بينج ساخرا ، وفي هذه اللحظة دخل كارول . وكانت قد اعدت له مكانا بينها وبين ليلى . وفي الجهة الاخرى يجلس بومي بين كابتن لورانس ومسز كلهون . وسيطر بينج على الحديث كعادته دائما . فهو متحدث بارع له دراية باشياء كثيرة . وله معرفة باشخاص كثيرين، ولذا لا تخلو جعبته من حكايات طريفة عن الناس

ولكن مارجريت كانت لا تحب منه هذه السيطرة على المجلس، وتتمنى لو انه ترك لسواه فرصة الكلام . الا انه في اعتقادها كان زوجا موافقا لاختها ليلى التي بدت مزهوة ببريق قرطها الجديد الثمين

وتحدث بينج عن الدسائس داخل الوزارة . وعن مونمارتر في زمن الحرب : وعن الجنرالات الفرنسيين وحكاياتهم مع زوجاتهم

وعشيقاتهم . وعن بوانكاريه وكليمنصو وغيرهمــا من المشــاهير الذين قابلهم اثناء زيارته الاخيرة لباريس . وروى عدة نكات لهـا اكثر من مغزى. فضحكمنها بومى كثيرا ولكنمــز كلهون تصنعت عدم فهم احداها،فكان ذلك مدعاة لامعان الرجال الثلاثة فيالضحك

اما الرجل الرابع فلم يكن فى نظر مارجريت سوى غلام . وهى تحب الغلمان . فسألته بهدوء وبصوتخافت اثناء انشغالالاخرين فى الضحك :

ــ كم مضى عليك من الوقت فى انجلترا ؟

ــ نحو ستة اسابيع

ــ وكم من الوقت تتوقع ان تبقى هنا ؟

ــ نحن فى انتظار الاوامر للسفر فى اية لحظــة الآن بعـــد ان انتهينا من تدريبنا

ــ ان الانباء الاخيرة الواردة من الميدان انباء مبشرة

ــ جدا

ــ وهل انت متشوق للذهاب الى الميدان ؟

ــ جدا

ــ ولكن الا تشعر بالاسى لبعدك من اهلك كل هذه المســافة ؟

ــ هذا شيء بغيض طبعــا . والواقـــع انى هربت من البيت وتطوعت بدون علمهم

ــ هذا عمل فيه قسوة

ــ كان هذا اسهلً على نفسى من مواجهة المناقشة والمعارضة . ولك أن تعتبرى تصرفى منطويا على الانانية

ــ كلا كلا . انى اتصور شعورك . اتعلم اننى اشعر دائما بالاعجاب لان الامريكان انضموا الينا فى القتال ؟ انهم يعيشون بعيدا عنا جدا وكان من الســهل عليهم ان يعتقدوا بأن المسألة لا تعنيهم

فقال لها باسما :

ــ انت اول شخص انجليزى اسمعه يقول هــذا . اما كثرتهم فيتلمرون لاننا لم ندخل معكم الحرب منذ اغسطس ١٩١٤.

وكان بينج يصغى للجزء الاخير من الحديث فتدخل قائلا :

ــ ان الامريكان بارعون ، فقد دخلوا الحرب فى النهاية ليكونوا

فى الجانب الرابع . فلديهم حاسة اقتصـــادية مرهفة . واظنهم متفائلين جدا بخصوص الحرب فى نيويورك ؟

ـ لا ادرى . فلم اذهب الى نيويورك مطلقا

ـ حقا ؟

ـ انى اعيش فى بلد يبعد ثلاثة آلاف ميل عن نيويورك . فحين توقع منى ان اكون فى نيويورك يشبه ان اتوقع منك ان تـكون فى جبال الاورال

وكان ردا بارعا كما قال لها بومى فيما بعـد ، وبدأت مارجريت تشعر بالاطمئنان الى سلامة روح السهرة . وســـاعد على ذلك جودة الشمبانيا والنكات المكشوفة نوعا ما التى اطلقها بينج فساد المرح جميع الموجودين . وفى قاعة الاستقبال استمع الجميع الى قليل من الموسيقى ، ثم حيتهم مسز فرينشام العجوز واحدا واحدا ثم دفع الساقى مقعدها نحو حجرة نومها . وبعد قليـل استأذن الضيوف فى الانصراف وبدأ السائقون يجهزون السيارات للرحيل

وكان الليل صافيا والهلال ظاهرا فى الافق الشرقى . وشعرت مارجريت بالراحة والانشراح لنجاح المادبة وللانتهاء من شواغلها . وانصرف بومى الى الحديقة الشتوية ليبحث مع البستانى اعمـــال الغد وجلست مارجريت مع كارول فى حجرة الاستقبال وحـدهما وقالت له :

ـ ارجو الا تكون شـعرت باستياء للهجـة بينج . فهـو يكره الامريكان

ـ لا باس . فمثل هذه الامور لا تؤلمنى

ووجدت ان الفرصة مناسبة لتفسير البرقية التى سيجدها ولا شك فى المعسكر عند عودته . فقالت له :

ـ ساكون صريحة معك . الحقيقةاننا لم نكن راغبين فى استقبالك الليلة . وتوقعنا الا يكون هناك انسجام بينك وبين بينج . فارسلنا اليك برقية تتعلل بعذر من الاعذار لتمنعك من الحضور .. ولكنك حضرت ومرت الليلة بخير

ـ ولكنى آسف جدا . فلابد ان البرقية وصلت الى المعســكر

بعد انصراف . كان ينبغي ان تخبريني لحظة وصولي
ــ لا تفكر في هذا الامر . فقد سرني حضورك
ــ حقا ؟ اتعنين هذا حقا ؟
ــ ولم لا ؟ يجب ان تعود للزيارة عندما لا يكون بينج هنا
فابتسم وقال :
ــ اظنك تحسبينني اشعر بالخشية منه . الواقع انياستظرفه
ــ حقا ؟ بعض الناس لا يستظرفونه حتى بعدان تتوثق معرفتهم به . انه مهذب جدا . ولكن عيبه انه يحب السيطرة
ــ وانت ؟ الا تحبين ان يسيطر عليك احد ؟
ــ لقد كنت دائما ارفض كل سيطرة علي . ولهذا اشعر بتوتر في اعصابي كلما كان بينج هنا !

وفطنت الى انها تكلمه كما لو كانت تعرفه منذ سنوات . فجعلها ذلك تتوقف فجاة عن الكلام . وطال الصمت الى ان قال لها وهو يتجه بنظره ناحية المعزف الكبير :
ــ العزفين ؟
ــ قليلا ما اعزف . وهل تعزف انت ؟
ــ قليلا جدا ايضا . ولكني لم المس معزفا منذ شهور
ــ اذن فلا بد انك تتحرق شوقا الى لمس هذا المعزف
ــ هذا هو الواقع . فهل تسمحين لي ؟
ــ طبعا

فنهض من جوارها وجلس الى المعزف وسكت برهة كانه عاجز عن التفكير في المقطوعة التي يحب ان يؤديها . ثم شرع يعزف مقطوعة من شوبان من مقام س الصغير . ولكنه بعد قليل بدا يتردد في العزف ويتعثر . فقال :

ــ آسف . هذه المقطوعة اصبحت عسيرة الاداء على الآن . لقد تيبست اصابعي . ساحاول شيئا اسهل منها

ثم عزف مقطوعة ضوء القمر من تاليف ديبوس . فكان بارعا رشيقا في لمساته . وبعد الانتهاء من النغمات الاخيرة قال لها :

ـ ان المعزف بديع الاداء

فاجابته بهدوء قائلة :

ـ وكذلك عزفك

فاحمر وجهه خجلا وقال متلعثما :

ـ بل المعزف هو الرائع حقا ... صوته غنى .. وحنون

ـ هذا لانه عتيق . لقد اشتريناه من آل شتاينواى عام اليوبيل الماسى للملكة فيكتوريا . وكانوا قد اشتروه مستعملا ايضا

ـ ياله من معزف عتيق رائع . ان عام اليوبيل هو عام مولدى

ـ وانا كنت يومئذ فى العشرين . واتذكر انى ذهبت مع ابى لمشاهدة المهرجان الكبير

فدار فوق المقعد المستدير وحملق فى وجهها قائلا :

ـ اذن انت فى الحادية والاربعين الآن ! ولم اكن اقدر لك اكثر من الثلاثين عاما واحدا !

ـ هذه تحية لطيفة من جانبك !

ـ لم اقصد المجاملة . هى الحقيقة !

فضحكت . وفى هذه اللحظة عاد بومى . وذهب الثلاثة الى قاعة لطعام حيث شربوا كاسا قبل الذهاب الى الفراش . وقال بومى انه يريد ان يطوف مع كارول آلحدائق فى الصباح . فادى ذلك الى مناقشة برنامج كارول . لكنه قال بانه يجب أن يعود الى المعسكر ظهرا . ولذا يجب أن يستقل قطار التاسعة والثلث . فقال بومى :

ـ هذا معناه انك سوف لا ترى الحدائق . وهذا القطار بطىء ومزعج . لو انه امكننى الاستغناء عن سائق لكلفته ان يوصلك الى المعسكر فى احدى سياراتى

فقالت مارجريت على الفور :

ـ ساوصله فى سيارتى انا يابومى بعد أن يشاهد الحدائق

ـ هذا ازعاج شديد لك بسببى !

ـ لا عليك . انى اذهب كثيرا الى اكسفورد لشراء ما يلزمنى . وهناك امور كثيرة سيمكننى قضاؤها هناك غدا . فلن تذهب الرحلة معك سدى

الفصل التاسع

سؤال

نعم كان بومى مبتهجا بمعرفته . فآله يملكون حديقة كبيرة كما قال لمارجريت فى صباح اليوم التالى وهى جالسة فى سيارتها ذات المقعدين تنتظر قدوم كارول بحقيبته • واستطرد بومى يقول :

ــ وليست حديقتهم طبعا كهذه الحديقة . ولكنها مع هذا حديقة لطيفة . تصورى انه قال لى انهم يستنبتون الازهار التى نزرعها هنا فى الحديقة الشتوية تحت الزجاج ... يزرعونها هناك هكذا فى الهواء الطلق بغير تدفئة خاصة . وهو حقيقة شاب لطيف المعشر بصورة خارقة للعادة • واعتقد أنه عرف كيف يصمد لبينج فى الليلة الماضية . وبينج كما تعلمين يحتاج الصمود له الى صفات خاصة ولم يتسع وقتى كى اريه جميع ارجاء الحدائق للاسف الشديد . ولذا يجب ان يأتى مرة ثانية ليشاهد البقية

ــ لعلنا اذن سندعوه للحضور فى عطلة الاسبوع القادمة ؟

ــ هذه فكرة طيبة . نعم . وجهى اليه الدعوة على كل حال ... والآن يجب ان اسرع بالذهاب ، وقد ودعته قبل ان يصعد لاحضار الحقيبة . فلابد لى من البت فى موضوع كارديف اللعين

وانصرف على عجل فشيعته مارجريت بابتسامة

وكانت الساعة العاشرة صباحا • والشمس ساطعة • ولا شك انه سيكون من السهل الوصول بالسيارة الى اكسفورد قبل الظهر . ولما ظهر كارول وراء السيارة ابتهج كثيرا وقال :

ــ كنت اخشى ان تكون من نوع الليموزين الضخم

فضحكت مارجريت وقالت له :

ــ انا اكره السيارات المقفلة

[illegible] . وكانت السيارة مريحة ومن اكثر [illegible] شعبيه . وكانت مارجريت تقودهـا في [illegible] بالسعادة منذ اول لحظة . وعنـدما وصلت [illegible] الى الطريق العام ، وغادرت الاسوار قال لها :

ـ بهذه المناسبة . لقد احببت شقيقك كثيرا

ـ حقا ؟ لشد ما يسرني هذا !

ـ والحدائق . . . ما اروعها !

ـ الناس كلهم يقولون هذا ، مع ان الحدائق قد اهمل شانها في المدة الاخيرة اهمالا كبيرا ، لانه لم يعد في استطاعتنا بسبب التجنيد ان نستخدم اكثر من بستاني واحد متفرغ ، ولكن بومي يعيش من اجل هذه الحدائق ، حتى انني اقول دائما انه يفضل في حالة قيام الالمان بغارة جوية على هذا المكان ان يصبوا قنابلهم على البيت لا على الحديقة والاشجار !

وانساب الحديث بينهما هينا ، وكارول يبدى افتتانا بالمناظر الجميلة على طول الطريق ، ويقارن بين هذا الجمال في المساحات الصغيرة وبين الآفاق الشاسعة المترامية في امريكا

ـ ولكنك ستحبين امريكا . ولا اقصد طبعا نيويورك والمدن الكبيرة بل تلك الاجزاء الهادئة التي لايزورها السياح عادة ، مثل أوريجون وتكساس ولويزيانا

ثم اخبرها مزيدا عن نفسه فهو ولد وحيد ، وآله ليسوا من كبار الاثرياء ، لان والده خسر في المضاربات في المدة الاخيرة ، ومع هذا استطاع ان يدبر امر ارساله الى جامعة ولاية كاليفورنيا في بيركلي . وكان في السنة الثالثة موفقا في دراسته عندما دخلت امريكا الحرب فغير ذلك كل شيء في حياته ، فاغراه حب المغامرة بالتطوع

ووجهت اليه مارجريت الدعوة للحضور في نهاية الاسبوع القادم باسمها واسم اخيها فاظهر سرورا عظيما وهتف :

ـ سيسعدني جدا ان احضر ان استطعت . . . ولكن اظنني استطيع . . . اوه لابد لي من الحضور باى شكل !

ووصلا الى مدخل المعسكر قبل الظهر بعشر دقائق ، فشد على يدها باسما ، وخيل اليها ان وجه هذا الامريكي الشاب يمثل كل

جديد ناضر فى الحياة . واخذت تبتسم وتلوح له بيديها قبل ان تنطلق بالسيارة ويغيب عن ناظريها



وتمخض ذلك الاسبوع عن أمور مثيرة ، لا بالنسبة للقارة الاوروبية فحسب ، بل وايضا بالنسبة لهاى ستاو . ففى يوم الاربعاء وقع حادث طفيف لبومى اذ تعثر بنتوء فى الارض فسقط وهيض ذراعه ولم يذهب الى الفراش كما نصحته أمه ، بل توجه الى المستشفى المحلى فى المساء ، واستشار طبيبا من أصدقائه فقيل له انه سيحتاج الى علاج بالتدليك مدة من الزمن

وفى وقت متأخر من مساء الجمعة بعد موعد العشاء وصل كارول، ولم يكن ارسل فى خلال الاسبوع سطرا واحدا فلم تدر مارجريت وبومى فى اى وقت سيكون حضوره . وكان الاثنان فى قاعة الاستقبال وبومى يبحث عن اسطوانة من اسطوانات الحاكى يريد ان يسمعها أما مارجريت فكانت تمر باصابعها فى كسل فوق المعزف واذا بالباب يفتح ، واذا كارول يندفع نحوهما متخطيا الساقى كوكسون بشبابه وحيويته الفياضة وتحت ذراعه صحف المساء :

ـ الانباء الليلة هائلة . فقد اخذ رجالنا الوفا من الاسرى ، واستولوا على سان ميهيل بأسرها !

وشد على يد مارجريت شدا قويا نقل اليها تيارا من حماسته ، كأنما ازيح الستار فابصرت اشياء لم ترها عينها من قبل . ثم فطن الى ان ذراع بومى معلقة فى ضمادة ، فابدى قلقه ، ولكن بومى طمأنه الى ان ذلك الرض لن يحول دون جولتهما غدا صباحا فى ارجاء الحدائق . فقال كارول :

ـ هذا جميل لانه قد لاتسنح لى فرصة اخرى لمشاهدتها . اذ اننا نتوقع صدور الاوامر الينا بالذهاب الى الميدان فى اية لحظة فنحن الآن لا نصنع شيئا فى المعسكرات سوى انتظار الاوامر . ولذا سمحوا لى بهذه الاجازة بسهولة

ودعاه بومى الى قاعة المائدة ليتناول كأسا من الشراب معهما . وبعد تناول تلك الكاس ، ذهب بومى كعادته كل ليلة للتفتيش الاخير على الحديقة الشتوية ، وبقيت مارجريت مع كارول وحدهما .

فقالت له :

ــ هذا غريب . اننى اشعر حقيقة انى اعرفك منذ سنوات

ــ حقا ؟ وهذا بالضبط ما اشعر به نحوك ونحو بومى وهذا البيت وكل ما هو انجليزى . وبهذه المناسبة اتظنينه يستاء اذا ناديته باسم بومى ؟

ــ انا واثقة انه لن يستاء من ذلك. ولتستطيع ايضا ان تنادينى مارجريت . وسأناديك باى اسم تشاء

ــ اسمى الاول انتونى . ولكنى لا احبه كثيرا . وافضل ان انادى باسم كارول بالطريقة التى تنطقينها انت !

فابتسمتا وقالت :

ــ وهو كذلك . ليكن كارول اذن

ــ فلنسرع ونوثق المعرفة بيننا . فانى اشعر ان العالم يدور من حولنا بسرعة فائقة ، وانه ينبغى ان اجرى باقصى سرعتى لالاحقها

ــ انا على كل حال سنستفيد فائدة كاملة من عطلتك . واذا كان بومى سيستاثر بك فى الصباح ، ففى استطاعتنا على كل حال ان نذهب بعد الظهر ان شئت بنزهة فى السيارة الى مكان ما

ــ لشد ما احب هذا !

ــ او نتسلق تل ستاو

ــ وانى لاحب هذا ايضا !

ــ واذا تغدينا فى ساعة مبكرة فقد يتسع الوقت للامرين معا !

ــ اذن يجب ان يتسع الوقت للامرين معا !

ــ وفى المساء اريدك ان تعزف . فسوف لا يأتى احد لتناول العشاء . وها نحن اولاء قد شغلنا لك وقتك كله

ــ انى سعيد بهذا جدا . بل انى مستعد ان اعزف لك الآن يا مارجريت ان احببت ذلك . .

ــ نعم . ارجوك

وذهبت معه الى قاعة الاستقبال حيث شرع على الفور فى العزف فعزف على التوالى مقطوعات كثيرة من شوبان ورافل وشومان وبتهوفن . وبعد ان انتهى من عزف آخر مقطوعة قالت له :

ــ الحقيقة انه يجب ان تحترف العزف !

ـ كنت مزمعا ان احترفه لولا قيام الحرب

وفى هذه اللحظة عاد بومى فاقترح عليهما تناول كاس اخرى . وحان منتصف الليل قبل ان يذهب ثلاثتهم الى مخادعهم . وكان آخر ما قاله بومى لاخته :

ـ انها لجريمة ان يرسلوا فتى كهذا الفتى الى خط النار وهو فنان موهوب . وان يتركوا الوفا من الخاملين والعاطلين من المواهب فى وظائف شبه مدنية لا خطر فيها على الاطلاق . انها جريمة لا تغتفر !



واستأثر بومى بكارول فى الصباح . ولكن مار يت كانت قد اعدت العدة لغداء مبكر ، وبعد الغداء مباشرة ، فى الساعة الثانية بعد الظهر ، كانت سيارتها الصغيرة تجوس بها بين التلال . وكان كارول لا يكف عن ابداء اعجابه بالمناظر المختلفة فتشعر لرنة ذلك الاعجاب بصدى فى نفسها كان اعجابه موجه اليها شخصيا . ثم اظهر دهشته لاتقانها قيادة السيارة هذا الاتقان الفائق ، ثم استطرد قائلا :

ـ ولكن لا عجب فى هذا لأن اسرتك تعتبر من اوائل القائمين بصناعة السيارات فى العالم . اليس كذلك ؟

ـ انا لا استطيع ان ادعى هذا . وكل ما هناك ان ابى كان دائما على استعداد لاحتضان المشروعات الجديدة . فلما مات فجاة وظفت امى مالها فى تلك الصناعة . وبعد ذلك انضم الينا بينج .. ولكننا لم نخترع شيئا بانفسنا

ـ اعتقد ان معكم فى المشروع شخصا اسمه لوفل أيضا ؟

ـ نعم وهذا هو المخترع

ـ اذن فكل منكما كان سببا فى ثراء الآخر ؟

ـ لا اعتقد ان هذا هو الوضع الصحيح للمسالة . فالواقع اننا اشترينا منه اختراعه لقاء مبلغ صغير . ثم ظللنا سنوات كثيرة نخسر فى انتاج السيارة الجديدة . ولم يبدا الكسب الا قبل بداية الحرب مباشرة . وعندئذ بدانا نفكر فى ترتيب معاش مجز للمخترع واذا به يموت فجاة

ـ هل كان مسنا ؟

ــ بل كان شابا . او على الاقل هكذا يبدو لى انا . لانه مات فى الثانية والاربعين

ــ ولكنكم اشركتموه فى اسم السيارة على كل حال !

ــ نعم لقد سعدت . . بل سعدنا كلنا بذلك . واظن ان هذا الاسم ابهجه اكثر من المال . فقد كانت حياته ماساة

ــ كنت تعرفينه جيدا بالطبع ؟

ــ نعم

وتناولا الشاى فى شلتنهام ، ثم عادا عن طريق تل ستاو . وهناك صعدا الى القمة معا على الاقدام ، واخبرته بتاريخ البرج العجيب

وفى تلك الليلة تناولا عشاء متاخرا ، وظل بومى يتحدث بلا انقطاع عن الحدائق . وادهش مارجريت ان ترى امها تنزل الى قاعة الطعام قرب نهايته . وبدا عليها انها تستظرف كارول بصورة واضحة . وكان الفتى شديد الهذب والاهتمام بها ، فتجاذب الاثنان حديثا طويلا منشعبا . ولما ذكر موضعا معينا فى امريكا ابتسمت السيدة العجوز وقالت :

ــ نعم لقد ذهب مستر فرينشام والد مارجريت وبومى الى هناك مرة . فقد كان من كبار الرحالة . ولا اظن ان على وجه الارض قطرا لم يزره مستر فرينشام . فقد شملت اسفاره جنوب افريقيا وامريكا والهند واستراليا وزيلندة الجديدة وسيبيريا . . .

وابتسمت مارجريت لحماسة امها كلما ذكرت زوجها فى الايام الاخيرة . ويبدو انها نسيت كل شىء عنه ما عدا الاساطير التى نسجت حول شخصيته وابهته ، فصار فى نظرها تلك الشخصية العجيبة التى تعرف كل شىء وكل انسان . انه بطلها الاسطورى

وابتهجت مارجريت لان امها احبت كارول . ولم يعد لديها شك فى ذلك عندما سمعتها تطلب منه ان يعزف لها شيئا بعد العشاء ، وامرت ان يدفعوا مقعدها المتحرك الى جوار المعزف . فعزف كارول لها مقطوعتين من الفالس لشوبان ، فشكرته وصعدت الى فراشها ، واستمر هو يعزف الى ان وصلت صحف المساء . فاخذ يطالعها بشغف لانها كانت تتضمن مزيدا من التفاصيل عن الانتصارات الامريكية فى سان ميهيل . ولما تركهما بومى لزيارة الحديقةالشتوية

كعادته جلست بجواره على الاريكة فابتسم وقلب صفحات الاطلس الذى بين يديه والذى كان يراجع فيها خريطة المعركة . وعلى خريطة تمثل الولايات المتحدة جعل يدلها على الطريق التى ستسلكها الى كاليفورنيا حين تاتى لزيارته . والتقى راساهما فوق الخريطة الكبيرة وعيناها تتابعان حركات اصابعه ، الى ان بدات الوانها واسماء ولاياتها تتداخل وتهتز امام عينيها . ولما وصلت سبابته الى سان فرانسيسكو استولى عليها صمت ، الى ان رفعت اليه عينيها وقالت :

ــ انك تفكر فى شىء ؟

ــ نعم وكذلك انت

ــ لقد كنت افكر يا كارول فى هذه الحرب . ويدهشنى أن رجالا من كاليفورنيا وتكساس ولويزيانا يقطعون آلاف الاميال ليحاربوا فى فرنسا . ان هذا يبدو نوعا من المعجزة والآن فيم كنت تفكر انت ؟

ــ لم اكن افكر فى شىء من هذا اطلاقا

ــ فيم اذن ؟

ــ الن احنقك ان اكون صريحا ؟

ــ كلا بالطبع

فاجابها بهدوء وهو يبتعد براسه عن راسها :

ــ كنت اتساءل لماذا لم تتزوجى قط

وشعرت باعياء غريب يستولى عليها ويسرى فى اطرافها ، حتى انها اتكات على وسائد الاريكة ، وهمست بقولها :

ــ هذا سؤال من الصعب الاجابة عنه

ــ انه ليس سؤالا . ولست اريد عنه جوابا . وانما هو الموضوع الذى كنت افكر فيه واقلبه فى راسى

وابتسمت للهجة الجد التى يتكلم بها وقالت :

ــ ربما اخبرتك بهذا كله يوما ما

ــ ولكنى لم اطالبك بالاجابة يا مارجريت

ــ ولكن هب انى احب ان افضى بها اليك ؟

وقطع عليهما الحديث دخول بومى



وكان اليوم التالى رطبا بعض الشىء يكتنفه ضباب خفيف ولكنها

... في الصباح ، فتنقلا بالسيارة مخترقين شلتنهام الى توكسبوري . وتناولا الغداء هناك بعد ان شاهدا معالم المدينة العتيقة ثم اتجها الى بريدون . وبدا لهما تل بريدون وسط الضباب وكانه جبل شاهق . ثم اغراهما المنظر بالصعود الى القمة فتركا السيارة وبدءا في التسلق . وقالت له :

ـ هذه هي المرة الاولى التي اتسلق فيها هذا التل

ـ هذا جميل . فكلما قلت لي هذه اول مرة ازور فيها هذا الموضع منذ كذا وكذا من السنين اشعر بالسخط لانه يوحي بانك عجوز

ـ ولكني عجوز فعلا !

ـ لست عجوزا ! انك في مثل سني . . فيما يتعلق بكل اساسيات الحياة

فابتسمت وقالت له :

ـ ولكني اعلم اني عجوز . حتى وان كنت لا تعلم هذا . فعندما كنت في سنك كنت استطيع ان اتسلق هذا الجبل من غير توقف . اما الان فانظر كيف الهث كاني آلة بخارية !

ـ لابد انك كنت رائعة في تلك السن . ولكنك اشد روعة في الوقت الحاضر . وما اكثر الفتيات الرياضيات في سن العشرين . ولكني لم اقابل فتاة تضاهيك يا مارجريت

ـ انك تجاملني مجاملة مسرفة !

ـ بل اني اعنيها بحذافيرها يا مارجريت ، فانا بكل امانة لا استطيع ان اتخيل فتاة في العشرين تضارعك في سحرك وفتنتك

ـ هذا غير معقول . فانا استطيع ان اعطيك اسماء عشر فتيات على الاقل من بين اصدقائي . وان اردت الدليل سادعو بعضا منهن للغداء غدا

ـ ارجوك الا تفعلي ! لاني ساكرههن ، فانا في الواقع لا احب الفتيات !

ـ حقا ؟

ـ انا افضل الرجال دائما . ولا اشعر بالارتياح مع الفتيات لما فيهن من بلاهة وتفاهة اما انت . . فهادئة رزينة وتشعرينني بالطمانينة الكاملة

ـ هذا لانى اكبر سنا

ـ كلا كلا من فضلك . وحتى لو كان الامر كذلك ، فالسن اذن هى احب شيء فى الدنيا . واظن هذا ايضا هو راى الاخرين

ـ الآخرين ! مثل من ؟

ـ بينج مثلا . فقد فطنت لنظراته اليك فى الاسبوع الماضى وكان واضحا جدا اعجابه بك

ـ هذا هراء يا كارول . فبينج ينظر هكذا الى كل امراة متى شرب كاسا من الشمبانيا او كاسين

ـ ليس الى كل امراة فى الاربعين على كل حال !

وقرب القمة توقفا عن الصعود ليستعيدا انفاسهما . وقد انقشع الضباب من فوقهما وتجمع من تحتهما ، فكان المنظر بديعا جدا . ونظرت مارجريت نحو التلال الاخرى البعيدة التى برزت قممها فوق الضباب وقالت له :

ـ الم تزل تتسامل لماذا لم اتزوج قط ؟

ـ لا تقولى لان بينج تزوج ليلى ؟

فضحكت وقالت له :

ـ ولكن هذا هو السبب فعلا . ومن العجيب انك ادركت ذلك من تلقاء نفسك ! ان المسالة كلها تبدو لى بعيدة عن التصديق الآن . ولكن هذه هى الحقيقة على كل حال . فقد مضى على وقت كنت مستعدة فيه ان ارتمى على عنق بينج عند اول اشارة منه

ـ هل كنت تحبينه ؟

ـ كنت اظن انى احبه . ولعلنى كنت احبه فعلا عندئذ . ولكن هذا كان منذ زمن طويل . كنت يومئذ فى الخامسة والعشرين . وكان بينج هو مدير المؤسسة ، فكنا نراه كثيرا بطبيعة الحال . واليه يرجع الفضل فى توطيد دعائم المصنع . ولولا جهوده الادارية والمالية الخارقة لكنا كلنا اليوم فقراء . ورغبت امى فى ان يتزوج احدانا . ولم يكن يعنيها من هى التى يتزوجها . فاختار ليلى لانها كانت جميلة جدا

ـ لابد ان وقع ذلك عليك كان قاسيا للغاية !

ـ هكذا كان شعورى عندئذ . ولكنى سعيدة الآن لانى لم اصبح

ـ انه يبدو لى على ما يرام

ـ انه كذلك فعلا ، ولكنه يفرض دائما ارادته عليك لا تدرى كيف . وليلى لا تبالى بذلك . اما انا فتكوينى مختلف عن تكوينها

وشرعا يهبطان التل . فقالت له :

ـ انه لعجيب جدا ان افضى اليك باسرارى على هذا النحو !

وامتلأت عيناها بالدموع وهى تضع يدها على ذراعه وتقول :

ـ كل شىء فيك ناضر جديد . وانا كل شىء فى عتيق . واظن ان هذا كان بداية المناقشة بيننا . . .

وركبا السيارة عائدين عن طريق التلال . وكانت تتــكلم طول الوقت تقريبا وتشجعه على القاء الاسئلة . ثم قالت له قرب الدار :

ـ من العجيب حقا ان اخبرك انت بما كان فى نفسى من تعلق ببينج فيما مضى . فما من احد يعلم هذا ولا سيما بينج نفسه

ـ الم يحس بشىء ؟ الم يخمن ؟

ـ اطلاقا . وكان ذلك مصدر متعة لى

ـ لا اظن هذا . فمن الفاجع جدا ان الرجل الوحيد الذى احببته فى حياتك لم يفطن الى تلك الحقيقة !

فضحكت عندئذ ضحكة عصبية وقالت :

ـ اراك تقفز الى النتائج بصورة رومانسية يا كارول . فمن الذى قال لك ان بينج هو الرجل الوحيد الذى احببته فى حياتى ؟

واحست باضطرابه . فشعرت بصدى ذلك فى نفسها مزيجا من اللذة والخوف . وطاب لها ان تكاشــفه بتلك الامور المطوية فى سريرتها . فقالت :

ـ الواقع يا كارول انه سبق لى حب مثير للغاية وانا فى العشرين من عمرى مع الرجل الذى اخترع السيارة . . فيليب لوفل !

ـ رباه !

ـ لست ادرى ما الذى جعلك تصبح هكذا . فليس عجيبا قطعا ان تفتتن فتاة فى العشرين من عمرها بمخترع شاب جميل الصورة وقد جن كل منا بالاخر جنونا حقيقيا زهاء شهر من الزمن . حتى لقد ظننت ان هذا الحب هو الحب الاكبر فى حياتى . . . وقــد

تخليت عنه فيما اذكر لانى ضبطه يعانق ليلى ويغازلها

نعم هذه هى الحقيقة . وما اغبانى فى تلك الايام

ــ لا اصدق هذا !

ــ ولكنها الحقيقة . لقد كنت فتاة لا تطاق وانا فى تلك السن ، ولا تصلح لرجل يريد ان يوطد مستقبله . كنت اريد ان استأثر من وقته باكثر مما يجب . وكنت اغار لانه لا يهمل عمله لينصرف الى حبى وصحبتى . واعتقد انه احس بالراحة فى اعماقه عندما تخليت عنه

ــ ولكنك كنت تحبينه ؟

ــ بصورة لا توصف !

ــ وماذا عنه هو ؟ هل تزوج فتاة اخرى ؟

ــ كلا . فهو ليس من الطراز الذى خلق ليتزوج . ولكن بصيرتى يومئذ لم تسعفنى بهذا الاكتشاف . فعمله كان مقدما لديه على كل شىء . ولم يكن اهتمامه بالنساء الا شيئا ثانويا عندما يكون لديه متسع من الوقت

ــ ان هذا يبدو فظيعا !

ــ كلا ! لقد كان لطيفا جدا مع الفتيات اللواتى كن يغازلنه على شرطه . وكانت غلطتى اننى احببته حبا حقيقيا . وفيما بعد ، لما خمدت الجذوة صارت العلاقات بيننا ودية جداً . وكان من الفاجع حقا أن يموت فى اللحظة التى بدأ فيها نجاح عمله

فجمع قبضتيه وحدق امامه بأسى وقال :

ــ هذا امر فاجع ، نعم له ولك ايضا يا مارجريت !

ــ لقد افتقدته كثيرا بالطبع

ــ ولكن فى مجموع حياتك يا مارجريت بصرف النظر عن الفاجع فيها وغير الفاجع ، وبصرف النظر عن هذا الحب الاول ثم حبك لبينج ... الم تشعرى فى غضونها بسعادة على الاطلاق ؟

فأجابته وهى تضحك ضحكا هادئا عميقا كانها تتحداه :

ــ بل حفلت حياتى باكداس فوق اكداس من السعادة . اؤكد لك هذا . ام ترانى ابدو نموذجا للتعاسة ؟

وكان الغسق قد خيم على الطريق والمراعى . والقمر قد توسط

السماء . والرياح قد اخذت تكتسح امامها الضباب وتطرده من الوديان ، فقال لها :

ـ كم اتمنى لو صعدنا تل ستاو مرة اخرى !

ـ فى استطاعتنا ذلك ان كنت تريد ذلك حقا

وتركا السيارة عند السفح وشرعا فى الصعود . ورنت على البعد اجراس كنيسة . فلما ارتفعا عن سطح الارض بدت لهما عن بعد انوار هاى ستاو . ولما رفعا راسيهما ، وجدا ضوء القمر ينعكس على البرج العتيق ، وكأنه منارة مرفوعة فى عرض اليم . وبعد ان وصلا الى القمة شرعا فى الهبوط من الناحية الاخرى ، وقالت :

ـ ان هذا الطريق سيفضى بنا الى الدار مباشرة . ولا وجه للقلق على السيارة لاننا نستطيع ان نرسل احد السائقين لاحضارها فيما بعد

وكانت كل كلمة وكل همسة تتردد لها اصداء بغير نهاية فى سكون الليل . فآثرا الصمت الى ان دخلا فى منطقة كثيرة الشجر فصاح فجأة :

ـ انظرى ، انظرى هناك !

ورات ضوء القمر يكشف ء جذع شجرة ميتة ملقى بحيث يسد طريقهما وكأنه شبح . ولكن خر لم يكن فيه ما يبعث الخوف لان كل شىء فى ضوء القمر وتحت تلك السماء الصافية كان هادئا مأنوسا

واقتربا من الشجرة . وعندئذ هتفت هى :

ـ عجبا . انها الشجرة العتيقة التى حفرت انا وبومى الحروف الاولى من اسمينا عليها ونحن طفلان !

ـ الم تكونى تدرين انها فى هذا الموضع ؟

ـ ان بومى احدث تغييرات كثيرة ، وقطع كثيرا من الاشجار منذ سنوات . فظننت هذه الشجرة بين الشجر الذى قطع وبيع

ووقفا امام الشجرة يفتشان عن مواقع تلك الحروف . فاكتشف كارول اولا الحروف الاولى من اسمها ثم حرف ف.ل. فقالت له :

ـ اتقول ف.ل ؟ هذا فيليب لوفل . لقد نقش الحرفين بجوار حرفى اسمى ذات يوم عندما صعدنا الى هنا

ـ عندما كنت فى العشرين ؟
ـ نعم
ـ ثم نسيت كل ما يتعلق بالموضوع ؟
ـ كلا . ليس بالضبط . كل ما هناك انى بحاجة الى ما يذكرنى بهذا الماضى . والواقع اننى اتذكره الان بكل وضوح . لقد حدث هذا ذات صباح يوم ماطر من ايام الصيف وقد لذنا بهذه الاشجار لنحتمى من المطر.
ـ وهل كان هذا عندما كنت تحبينه ؟
ـ ربما ... او قبيل ذلك . فالانسان لا يعرف دائما متى يبدا بالضبط فى حب شخص ما ..
ـ حقا ؟ اما انا فاعرف
ـ انت ؟
ونظرت اليه غير مصدقة . فاجابها :
ـ نعم . فقد عرفت اننى احبك فى الليلة الماضية عندما كنا ننظر معا فى اطلس الخرائط الملونة
ورات نور القمر ينعكس على عينيه . فلما فكرت فى جواب هبت الرياح الندية بين الشجر ، والقت تحت اقدامها بحفنة من الاوراق الجافة ... ان الامر كله يبدو غير معقول وسخيفا على نحو ما . ولكنه سخف ليس اشد من سخف القدر الذى ارسل اليها ... وها هى ذى تجد نفسها هادئة هدوءا غريبا وهى تقول له بعد برهة صمت غير مشحون بالتوتر :
ـ يا كارول ... انك لا يمكن ان تعنى ما تقول
ـ بل اعنيه
ـ اتمنى على كل حال الا يكون ما قلته صحيحا . اتمنى ان تكون مندفعا مخدوعا
ـ بل انى واثق يا مارجريت من انى احبك اكثر مما احببت اى انسان او اى شىء منذ ولدت !
ـ اوه .. انى آسفة ... آسفة جدا
ـ لماذا ؟
فهزت راسها وقالت :

ــ كلا . كلا ... لا ينبغى ان نتكلم فى هذا الموضوع وهيا بنـــا نسرع بالعودة الى البيت !

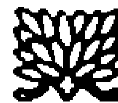
واجتازا المراعى ذات اللون الفضى التى تغمرها اشعة القمر ، ثم النهر ، ثم حدائق الزهور التى بدت كأنها تستحم فى الاشعة الفضية ولم يتبادلا كلمة واحدة الا عندما كانت تشير بين الحين والحين الى هذه الشجرة أو تلك ، او الى مجموعة من الزهور تعترض طريقهما كان تقول :

ــ هذا الكريزانتيم قد نجحت زراعته جدا هذه السنة .. وهذه البلوطات القرمزية التى تراها هناك تبدو متوهجة فى ضوء القمر .. انا لا استطيع ان اتذكر اسم هذه الزهور الزرقاء الجميلة ، ولكن يومى يستطيع ان يحدثك عنها طبعا ..

والحقيقة انها كانت تبذل جهدا كجهد اليائس فى تجاهل ما حدث بينهما من حديث ومن مكاشفة تجاهلا تاما . واخيرا عندما اقتربا من الدار التفتت نحوه وقالت :

ــ لا تظن يا كارول اننى تأذيت من كلامك على الاطلاق .. لاتجعل هذا يتبادر الى ذهنك .. ولكننا .. يجب ان نبقى اصدقاء على الدوام .. هل فهمت ما اعنى ؟

ورحل كارول تلك الليلة بعد العشاء مباشرة لانه يجب ان يصل الى المعسكر فى منتصف الليل . وكان هناك قطار مناسب له يغادر شلتنهام فى منتصف العاشرة فتولى السائق روجرز توصيله الى المحطة



الفصل العاشر

معركة العواطف

مر اسبوع باكمله قبل ان تصلها انباء منه . وكان ذلك الاسبوع حافلا بالاحداث العظيمة فى العالم كله . ففيه انهارت بلغاريا وسقطت الناصرة فى ايدى الجيوش البريطانية وهزم اللنبى الاتراك هزيمة ساحقة

وفى يوم الاحد وصلت برقية منه تقول انه سياتى فى المساء . وكانت مارجريت تتحدث الى امها فقدمتها اليها بعد ان قراتها بنفسها ، فاظهرت السيدة العجوز اغتباطا شديدا بنبأ حضور هذا الشاب اللطيف ، وقالت انها ستنزل فى وقت العشاء لانها تحب ان ترى هذا الشاب :

ـ انه من الطراز الذى كان ابوك حريا ان يحبه كثيرا !

ولكن مارجريت عجبت فى نفسها لماذا يجشم نفسه السفر ثلاثين ميلا لمجرد الزيارة والعودة فى نفس اليوم . وحدثتها نفسها انه تلقى الامر بالرحيل الى الميدان ، وان الدافع له الى الحضور هو توديعها . واعترضت صدرها غصة من غصص الخوف . الخوف من رؤياه والخوف من توديعه . فان ماكان بينهما من حديث ومكاشفة بين اشجار البلوط على تل ستاو ، قد جعل الامور بينهما تبدو لها حرجة بعض الشيء

وكان وصوله قبل الوقت الذى توقعته بمدة طويلة . وكان اطفال ليلى قد جاءوا بعد الظهر فظلوا يتوسلون اليها أن تسمح لهم بلعبة الاستخفاء فى الحديقة . وبين صيحاتهم :

ـ من فضلك ياخالة مارجريت !

اقبل كارول يهبط السلم بسرعة . وعلى الفور سكت الصياح

وجعل الاطفال جميعا ينظرون الى هذا الغريب ذى السحنة الصبيانية الذى يرتدى كسوة عسكرية غير مالوفة لهم ، ويشد على يد الخالة مارجريت بحرارة ويقول لها وهو يلهث :

ـ اعلم أني جئت مبكرا جدا ولكنى استعرت دراجة بخارية حتى لا انتظر القطار . وارجو الا اكون قد سببت ازعاجا !

ـ كلا بالطبع

وكانت تشعر بشىء من التوتر العصبى ، وتتساءل هل يشعر هو ايضا بذلك التغير الدقيق فى العلاقات بينهما . واستطردت بعد برهة :

ـ انك تبدو فى احسن صحة !

ـ وكذلك انت . والانباء التى فى الصحف اليست رائعة ؟

ـ الى حد ان الانسان لا يكاد يصدقها . واخشى انك ستصاب بشىء من خيبة الامل لان بومى ليس هنا . اذ اضطر للسفر مع بينج لتسوية بعض مسائل تتعلق بالاعمال

ـ لا حيلة فى هذا اذن . وانت هنا على كل حال . اليس كذلك ؟

ـ والآن اسمح لى ان اقدم لك ابناء اختى : بيتر وميكى وجون وبريان . بترتيب اعمارهم طبعا . وهذا يا اطفال مستر كارول القادم من امريكا

وسرها ان تراهم على الفور يستجيبون لسحر شخصيته ، فالتفوا حوله يفحصون كسوته العسكرية فى لهفة ممزوجة بالخجل ، الى ان قال بيتر وهو اكثرهم جراة واكبرهم سنا :

ـ ابى يقول انكم معشر الامريكيين دخلتم الحرب متاخرين جدا

وضحك كارول واخذ يداعبهم ويناقشهم ، فلم تمض دقائق الا وهو فى نظرهم بطل . وعندئذ سمحت لهم مارجريت ان يجروا ويلعبوا فى الحدائق

وقال كارول اذ ذاك :

ـ هؤلاء اطفال ليلى فيما اعتقد

ـ نعم وهناك طفل رضيع ايضا

ـ مجموعة لطيفة . ما اسعد ليلى وبينج بهم

ـ بينج يعبدهم وهم يعبدونه طبعا . ومن المؤسف انه يضطر للابتعاد عن البيت كثيرا من الاحيان

وظلا يتجاذبان الحديث وهما يسيران فى الحدائق ويلتقيان بين حين وآخر باحد الاطفال مختفيا عن اعين اخوته . وبدأت تسترد سجيتها فاحست بسرور لصحبته يغمرها بالدفء . فقد خامرتها الشكوك اثناء الاسبوع ، اما الآن فكانما حدثت معجزة بدون هذه الشكوك ، وايقنت انه من الممكن بعد الذى حدث بينهما ان يكونا صديقين . وقال كارول فجاة :

ـ اظنك تدركين لماذا جئت ؟

ـ لكى تودعنا ؟

ـ نعم . فسوف نرحل غدا

ـ الى فرنسا ؟

ـ نعم

ـ هل تظن انك ... ستشترك ... فى القتال ... سريعا ؟

ـ جائز جدا . فلا احد يدرى ماذا سيحدث !

ـ اظنك مستثار الاعصاب ؟

ـ بصورة هائلة

ـ بومى سيحزن لانه لم يرك قبل ان ترحل

ـ ليس لهذا اهمية حقيقية . فسوف اراه مرات كثيرة فى المستقبل على ما اتمنى

ـ نعم . هذا طبيعى

ـ وكذلك انت ؟

ـ طبعا ... الى متى ستبقى هذا المساء ؟

ـ المفروض اننى ساعود قبل منتصف الليل . وطريق العودة لا يستغرق بالدراجة البخارية ساعة

ـ عظيم . اذن تستطيع أن تبقى للعشاء وتعرف على البيانو بعد ذلك

وكان رائعا جدا ان يستطيع كلاهما الكلام بصورة عادية ، كانما حادثة اشجار البلوط لم تقع اطلاقا . فهاهما ذان كأى صديقين قديمين حميمين . وعندما اقبل الاطفال تحدوهم المربية للتحية

قبل الرحيل ، شعرت بفخر عظيم لما راته يصافح بيتر وميكى وبريان ويقبل جون . وكاد فرحها به يعجزها عن الكلام

وبعد ذلك دخلا الى البيت لتناول الشاى . وكانت النار قد اشعلت فى مدفاة حجرة الطعام ، فجلسا فى مقعدين وثيرين على جانبى المدفاة واستمرا فى حديث لا ينقطع . وقالت مارجريت :

ـ ستنزل امى للعشاء كى تراك خصيصا

ـ حقا ؟ انى اقدر هذه المجاملة كل التقدير ، فهى سيدة رائعة !

ـ لشد ماتحب أن تسمع هذا منك

ـ حقا ؟ اذن ساقول لها ذلك متى سنحت لى فرصة . كم عمرها ؟

ـ خمس وسبعون سنة

ـ قال لى بومى ان بصرها وسمعها فى احسن حال

ـ نعم . فهى تستطيع ان تقوم بكل شىء فيما عدا المشى . وقد عجزت عن المشى منذ اكثر من ثلاثين سنة

ـ ياله من عمر مديد ! وكيف حدث ذلك أصلا ؟ أهو نتيجة حادث ؟

ـ نعم . نتيجة نوع من الحوادث

ـ ومع هذا يعتقد الناظر اليها الآن انها نعمت باسعد حياة فى العالم !

ـ لعلها تعتقد انها سعدت فى حياتها . وهذا الطف شعور يحس به الانسان حين يكون فى الخامسة والسبعين

وتجمعت ظلمة الغسق حولهما وهو جالس امامها مشبوك اليدين بين ركبتيه ، ووهج النار ينعكس على وجهه فيبدو حديث السن ، يتدفق عافية وقوة . وظلا يثرثران بلا هدف الى ان صار من الضرورى ان تتركه لتساعد امها على ارتداء ثيابها تاهبا للعشاء

وكان العشاء نفسه ناجحا جدا ونزلت السيدة العجوز فى ثيابها الحريرية السوداء ذات الخفيف ودفعوا مقعدها الى مكان قريب من النار بجوار كارول . وظل الاثنان طوال المدة التى استغرقها الطعام يتحدثان فى مودة ظاهرة تكاد تصل الى تبادل الغـزل ، وطلبت مارجريت من الساقى كوكسون ان ياتى بزجاجة من أفخر انواع

الشمبانيا . وشرب كل واحد منهم نخب الآخرين . وضحكوا جميعا من قلوبهم . وبعد العشاء بدأت مسز فرينشام تهوم للنوم ، فدعى كوكسون كي يصعد بها الى حجرتها . ووضع كارول يده فى يدها المتغضنة وقال لها :

ـ اتعشم ان التقى بك ثانية باسيدتى . فانا ذاهب الى فرنسا غدا

ـ فرنسا ؟ لقد ذهبت الى فرنسا ذات مرة ... اوه ؟ اتعنى انك ذاهب الى الحرب ؟

ـ نعم الى الحرب

ـ اذاهب انت لمقاتلة الالمان ؟

ـ ان وقع نظرى على احد منهم

ـ تمنياتى الطيبة باعزيزى ... يجب ان تاتى ثانية . فيما بعد ... حفلة كبيرة ... بومى وبينج ... وداعا . يجب ان اذهب الى فراشى !

وبدا كوكسون يدفع المقعد . فقالت مارجريت :

ـ عن اذنك يا كارول . ساصعد واشرف على راحتها

وكانت مارجريت تبتسم عندما عادت لتقول له :

ـ لقد تركتها غارقة فى النوم . خادمتى هى التى تغير لها ثيابها وترقدها فى الفراش ، ولكنى احب دائما ان اكون موجودة . .الخامسة والسبعون ! ياله من عمر ! وهى مع هذا فى صحة جيدة جداً بالنسبة لسنها ...

واقبل كوكسون يحمل اقداح القهوة وشرابا معتقا من انتاج سنة ١٨٢٤ ، لان مارجريت كانت مصممة على ان تحتفل احتفالا خاصا بليلة الوداع هذه . وانتقلا الى حجرة الاستقبال حيث كانت النيران تتراقص فى المدفاة فقال :

ـ لا تشعلى الانوار لانى احب العزف على ضوء النار . واتجه على الفور الى المعزف ، وشرع يؤدى الحانا صغيرة هينة لم تكن قد سمعتها من قبل . وكان عزفه جميلا كالعادة . ولكنه فى هذه المرة كان اجمل وارق . ولعل هذا الجمال كان فى اذنيها اكثر مما كان فى عزفه ... وجلست مارجريت بجانب المدفاة تصغى وتصغى الى ان

امتلأت الحجرة باطياف السحر المتراقصة أمام عينيها ... وكانت طوال الوقت تتخيله راقدا فى الخنادق وقد جرحت يداه ، تلكما اليدان اللتان يتمثل فيهما كل شبابه ونضرته . وشمرت على الفور بعجزها وضعف حيلتها ازاء هذه الصورة المروعة • فهاهوذا ذاهب الى مصيره المجهول . وهاهى ذى عاجزة عن منعه

وابتسمت نصف ابتسامة عندما انتهى من العزف ، واقبل نحوها وركع امام النار لتدفئة يديه . فسألته :

ـ هل انت مقرور ؟

ـ نعم . جدا ... ويجب ان اقول لك شيئا سواء احببت ذلك ام لا . لقد ظننت فى البداية انى مستطيع ان امضى من غير ان اصارحك به . ولكنى ارى الان انى لا استطيع ذلك . لان الكتمان سيؤلمنى الما يفوق طاقة احتمالى ... يامارجريت . يجب ان تعلمى . لانى اريدك ان تعرف بالضبط ماذا اعنى ... انى احبيك يامارجريت . وسواء كان هذا سخيفا فى نظرك أو غير سخيف ، فانا اعلم علم اليقين انى لن احب احدا سواك

وتلاشت جميع خططها وقراراتها فى هذه اللحظة وتركتها فريسة لرغبتها وحدها . واحست بشلل يصيب ارادتها حتى عجزت عن القيام باى شىء ماعدا شيئا واحدا ، هو الانحناء بوجهها الى مستوى وجهه وهو راكع على الارض

وبعد قبلتهما الاولى المحرقة غمغم يقول لها :

ـ لا حيلة لى فى هذا ...

فاجابته بمثل همسه :

ـ ولا انا ياكارول ياحبيبى ...

وخيل اليها عندئذ ان سحب الحرب الداكنة اخذت تدنو من الارض فجاة حتى لامستها . وعلمت أخيرا علم اليقين انها تحبه ·

ان الحرب هى التى جمعتهما وهو على حافة الحياة وهى فى قرار الحياة بكل غناه وعنف انفعاله . والحرب ايضا هى التى توشك أن تفرق بينهما ...

وقال لها بصوت اجش :

ـ عندما اعود ، فيما بعد ... اريد ان اتزوجك

ـ تتزوجني انا ؟

ولكنها علمت عندئذ انها تريد أن تتزوجه اكثر مما أرادت ان تتزوج اى انسان آخر فى حياتها . بل أكثر مما تمنت أى شيء فى عمرها كله . . .

ـ ولكن ياكارول . . . انك لا يمكن أن تعنى هذا !

ـ ولم لا

نعم ولم لا ؟ هناك عشرات من الاسباب . انها واثقة من هذا . ولذا قالت له بعد برهة صمت :

ـ ياكارول . لا ينبغى ان نكون سخيفين فى تفكيرنا . تذكر ياكارول كم تبلغ سنى !

ـ ان سنك لا اهمية لها عندى مطلقا . انا لا افكر فيها قط . ان كل ما افكر فيه هو انت . انت فقط . شخصك . وانا اعنى هذا بحذافيره . وما كان ليغير من رايى ان تكون سنك مائة سنة !

فقالت باسمة :

ـ ان الموقف كان يبدو أقل سوءا لو كانت سنى مائة سنة . لانك فى هذه الحالة ستكون فى الثمانين . اما الآن فيجب أن تدرك وجه الاستحالة ياكارول . ان الناس سيظنوننا مجانين

ـ اتقولين مجانين ؟ وهل يمكن مهما حاولنا ان نكون أشد جنونا من العالم كما يبدو فى لحظته الراهنة ؟

ـ ولكننا ينبغى الا نكون مجانين على الاطلاق !

ـ ولم لا . انا لا ابالى بمارجريت . ولم ابال فى يوم من الايام بما يظنه الناس بى . ولا اعتقد انك فى قرارة نفسك تبالين براى الناس فيك ايضا

فهزت راسها وقالت :

ـ بل انى ابالى ياكارول . وستبالى انت ايضا عندما تبلغ من العمر مابلغت انا

ـ ربما لم اعش حتى اكون فى مثل سنك

وكان هذا صحيحا . ولذا ارتجفت شفتاها وهى تجيبه :

ـ فكر قليلا ياكارول . . . انك عندما . . . او اذا . . . صرت فى سنى . . . ساكون انا . . . فى الستين ! الستين ياكارول ! الست

تدرك مبلغ مافى ذلك من الفظاعة ؟ لن ابالى ان يسخر الناس منى . ولكن الناس سيسخرون منك ايضا . وهذا مالا اعتقد انى احتمله

وكانت عيناه تومضان الآن بمثل النار التى تلظت بها شفتاه منذ قليل . وكان هذا كله عجيبا . حتى انها لم تكد تصدق انه واقع امام عينيها . لقد طلب يدها وهاهى ذى ترفضه ... وكل هذا غير معقول مثل تلك الحرب التى تزمع أن تأخذه منها لتلقى به بعيدا

وسألها بصوت حاد :

ـ هل هذا قرارك الاخير ؟ اواثقة انت انك لا تريدين ان تتزوجينى ؟

ـ انا واثقة انى لا استطيع ذلك ياكارول

ـ حتى ولو كنت مهتمة بى ... قليلا ؟

ـ ومن قال لك انى مهتمة بك ؟

وشعرت ان السؤال سخيف . فقد قرا سخافته فى وجهها وقال وهو يقبض على ذراعيها ويحدق فى عينيها :

ـ بربك يامارجريت ...

وظل كل منهما يحدق فى عينى الآخر من غير أن يتكلم . وقد لفهما غموض غريب هائل ، اشترك فى خلقه الحب والحرب والشباب والسن . لغز غامض لاتستطيع الكلمات أن تجلو غياهبه ...

وهتف اخيرا هامسا :

ـ مارجريت ...

وابتسمت وهى تطل من فوقه وشعرت فجاة بفيض من القوة . ولكنها قوة هادئة مطمئنة لم يستطع اى حب آخر ان يمنحها اياها . قوة ليس فيها شىء من خداع أوهام الشباب . بل انها على العكس شعرت بعمرها كما لم تشعر به من قبل ... وكان السماوات وشاح تتدثر به فيمنحها الامن والراحة

واخذت تتخلل شعره باصابعها وتتحدث اليه بحنان دافق وهدوء كامل

ـ كارول ياحبيبى . ينبغى الا تكون سخفاء مضحكين . ولقد كنا سخيفين فعلا ... ولا سيما انا ... ولا اعتقد انى استطيع ان

الزوج اى انسان . هذه حقيقة واقعة . فهناك بومى وهو كما ترى اعزب متمسك بعزوبته لا أمل فى اقلاعه عنها . وسيشعر بالضياع التام لو اننى تخليت عنه وفارقته ... اوه ! لا يمكننى ان احتمل التفكير فى هذا . وهناك ايضا امى ... فلابد ان يرعى شئونها انسان ... وفضلا عن هذا لاشك فى انك ستعثر على فتاة فى مثل سنك يوما ما . كلا ... لا تعترض ... ان الحب الاول قلما يدوم ... تذكر حبى الاول ... لقد خيل الى يومئذ انى ساموت غما . ولكن هانذا الآن قد اوشكت أن انساه تماما !

ونهض واقفا وهو يضحك فتحطمت تعويذة السحر . واشعل سيجارة ، وقال لها وهو يذرع الحجرة ذهابا وايابا :

ـ اما انا فقد آمنت فعلا بسبب حبى الاول

وبصورة ما فارقته حداثة سنه ورنت ضحكته الغريبة الجافة فى اذنيها رنين الرجولة الكاملة . احست انها مهما منحته فستكون مدينة له بذلك الشباب الغرير الذى جردته منه . كانت مستعدة ان تمنحه فى هذه اللحظة اى شىء على سبيل التعويض عن شبابه المسلوب . ولكنه لم يطلب شيئا . بل قال بعد لحظة صمت :

ـ يا الهى . انى اكاد لا اصدق انى وجدت الجراة على معاملتك على هذا النحو ... وانى لآسف جدا

ـ لا عليك . اعزف لى شيئا

ـ ان سمحت لى فلن اعزف شيئا . كل ما اصلح له الآن هو الصمت ، ولن افلح فى اداء نغم مستقيم . وربما كان الافضل لى الآن ان انصرف

ـ نحن بعيد العشاء . وامامك فسحة من الوقت

ـ لا اريد ان اتعرض لطوارىء الطريق بسبب السرعة !

ـ تناول كاسا على الاقل قبل ان تذهب

ـ لا باس بهذا . وشكرا لك

وذهبا الى حجرة الطعام فصبت له قدحا كبيرا من الويسكى . فقال لها وهو يتجرع كاسه دفعة واحدة :

ـ مع احسن التمنيات لمستقبلك

ـ ولك ايضا

ـ نعم

ـ يلعبهما اطيب تمثيالى

ـ ساقبل

ـ انى اتركك فى رعايتهما

فضحكت وقالت :

ـ احقا ؟

ـ نعم . ولاسيما فى رعاية بينج

ـ انا ... انا لا ادرى ماذا تعنى ؟

فقال وهو يضع كاسه :

ـ انى لم انس الطريقة التى كان ينظر بها اليك تلك الليلة ونحن على المائدة ... ولكن لا باس . انه اهل لذلك ... اتسمحين لى ان آخذ هذا الثقاب لاشعلْ به مصابيحى ؟

فاومات براسها وتبعته الى البهو . وخيل اليها ان دهرا قد انقضى وهو يرتدى سترته الجلدية استعدادا لركوب الدراجة البخارية . وقالت له :

ـ ستكون الرحلة شديدة البرودة فى العراء

واجابها بلا اكتراث :

ـ لست ابالى . انا لا ابالى شيئا

ووقفت بجانبه امام الباب ريثما اشعلَ المصابيح واعد آلة الدراجة للعمل . فقالَ لها :

ـ اخشى ان تصابى ببرد

فاجابته فى اسى واجم :

ـ لست ابالى . انا لا ابالى شيئا ايضا

فنظر اليها وضحك ثم تصافحا . ولم يكن هناك قمر . وانما هى السماء الزرقاء الداكنة الصافية الاديم الموشاة بالنجوم . وقال كارول :

ـ وداعا يامارجريت !

ـ وداعا ياكارول !

وكان هذا كل شىء . وبعد ذلك انفجر هدير الدراجة البخارية

يهتك هدوء الليل ثم طواه الظلام فوق دراجته • وظلت هى واقفة حيث كانت الى أن اختفى عن ناظريها آخر بصيص لانوار الدراجة . لم انتظرت بعد ذلك ايضا لانه خيل اليها ان صدى هدير الدراجة يتردد بين التلال • فكان لابد لها ان تتريث الى أن يتلاشى هذا الصدى . ثم عادت ادراجها الى الدار وهى تشعر باعياء شديد يستولى على سائر اطرافها



وانقضت عشرة ايام بعد رحيل كارول من غير أن تسمع منه شيئا او تصلها رسائلُ منه . ولم تكن تتوقع أن يكتب اليها . فلم يكن ثمة اتفاق بينهما على شىء من ذلك . ولكن فى اليوم الحادى عشر جاءتها رسالة منه يخبرها فيها انه لم يشترك بعد فى قتال حقيقى، وان كان دوى المدافع يصل الى اذنيه . وأن جميع الجنود فى جميع الجيوش المتحالفة يعتقدون ان الحرب ستضع أوزارها قريبا . وان صحته على خير مايرام . وانه يستمتع بالحياة « على نحو ما » . . . وكان هذا كل مافى الرسالة لان نصف السطور على الاقل طمسته يد الرقيب الحربى

وعلى الفور كتبت اليه ردا عاديا وديا حافلا باللغط والثرثرة حشدت فيه جميع انباء الاسرة كما وردت على خاطرها :

ـ . . . وقد أسف بومى اسفا شديدا لانه لم يتمكن من مقابلتك قبل أن تسافر . وقد طلب منى ان ابلغك اطيب تمنياته . هل هناك اى شىء تحتاج اليه او اى شىء تحب ان نرسله اليك ؟ أن ذلك خليق ان يدخلَ السرور العظيم على انفسنا . . . فنحن نشعر بالوحدة هنا كما هى العادة عند اقتراب الخريف • ولكن لدينا أعمالا كثيرة • وسيأتى بينج وليلى للعشاء فى الاسبوع القادم . . . وهذا معناه مجهود اضافى للطاهية ولى . . . وابن أختى بيتر الذى قابلته فى المرة الاخيرة عندما كنت فى زيارتنا دخل المدرسة ، ويبدو سعيدا جدا بذلك . . . وامى حالتها كما هى وقد طلبت منى ان أبلغك تحياتها . .

وقضت مارجريت طيلة بعد الظهر بعد ارسال ذلك الخطاب فى مساعدة الطاهية بالمطبخ • وبعد الشاى ذهبت لتمد أمها لاستقبال

بينج . واستقباله يسرها دائما . وكان موعد العشاء فى الثامنة . وقبل الثامنة بربع ساعة ذهبت الى حجرتها لترتدى ثيابها . وبينما هى تمشط شعرها حملت اليها الخادمة خطابا وصل فى تلك اللحظة . وعرفت خط كارول وقرات الاختام العسكرية على المظروف فارتجف قلبها وهى تمزق الغلاف . ولكن اول عبارة وقعت عليها عيناهـــا كانت : « انا بخير وسلام »

فكان لرد الفعل اثر قوى حتى لقد كاد يغمى عليها فارتمت فوق الفراش مسلوبة القوة . وبعد قليل استطاعت ان تقرا الرسـالة .

« عزيزتى مارجريت :

« هذه اول فرصة تسنح لى بالكتابة اليك منذ ايام ، وانا بخير وسلام . ولكن الموضوع الذى ناقشناه فى مقابلتى الاخيرة لك لم يزل له تاثير قوى على نفسى ، ويسبب لى اضطرابا كثيرا . وقد خيل الى فى البداية انى ساستطيع تناسيه . ولكنى لم استطع . واشعر أن كل شىء هنا يتوقف على هذا الموضوع . وانى اعلم أنه من الاجحاف الشديد بك ان اقول لك هذا الآن . ولكنها الحقيقة . فليتك تستطيعين على الاقل ان تمنحينى ولو نصف وعد . فانه سيمنحنى أملا كافيا ، ويشعرنى أن الحياة ممكنة ... اعــلم انى اسات عرض المسـالة فى هذه السطور . ولكنى واثق انك ستقدرين الظروف التى أكتب فيها . وقد كانت لديك دائما قدرة فائقــة على الفهم والتقدير . وربما لم تتح لى بعد هذا فرصة للكتابة اليك مدة طويلة من الزمن ... »

وتلت ذلك سطور شطبها الرقيب فلم يترك الا الامضاء

وخيل اليها انها لم تفهم شيئا من القراءة الاولى . ولاسيما لان الرسالة كلها مكتوبة بحبر بنفسجى وبخط سريع مضطرب

واعادت تلاوة الرسالة . وقبل أن تتمها سمعت رنين الجرس فى الطابق الاسفل يدعو الطاعمين الى المائدة

اذن قد وصل بينج وليلى !

ووضعت الرسالة فى درج مكتبها الصغير واغلقته بالمفتاح ، لم اسرعت لتتم تصفيف شعرها

الفصل الحادى عشر

مهرجان النصر

وعلى مائدة العشاء بدا كل شيء مهتزا غامضا فى عينيها ، فصار بينج ذاسحنة بشعة ،وكان صوته المرتفع ،وضحكه المرتفع ،يسيطران على الحجرة . والى جواره جلس بومى بادى السعادة ولكنه متوتر الاعصاب شيئا ما ، ولذا لم يكن حديثه طلقا يسيرا كعادته ، وكانت امها جالسة بجوار النار تحدق فى المائدة ، وعلى شفتيها ابتسامة ثابتة لا تتغير . وبين الحين والحين كان بينج يلتفت اليها فجاة ويسالها :

ـ اليس هذا رايك ايضا يا امى ؟

فقد كان ينادى حماته بهذا الاسم دائما ، وكانت عند سماع هذا السؤال تتصلب عضلاتها وملامحها كالقطة المتوجسة وتقول :

ـ نعم .. نعم يابينج .. انا متفقة معك فى الراى جدا يا بينج

وكانت ليل جالسة بجوار مارجريت ومجوهراتها الثمينة الكثيرة تتلألا .لقد تخلى عنها جمال صباها الان، لان بينج والاطفال استنزفوا حيويتها ونضارتها ، ومع هذا ظل بينج حنونا كريما على طريقته الخاصة . فهو لا ينفك يشترى لها الهدايا الباهظة الثمن . وكانت هديته الاخيرة لها قلادة يزيد ثمنها على الف جنيه ،كانت ليلى مزهوة بها ، تريها لكل انسان وتطرى رقة زوجها وطيبة قلبه

وفى نهاية الوجبة قدمت الاشربة المسكرة ، فاومات الام كعادتها الى كوكسون كى يدفع مقعدها ، ولكن بومى قال :

ـ ابقى قليلا يا أماه !

وكان غريبا جدا ان يحدث منه هذا . وانتظر الى ان انصرف كوكسون . ثم قال بعد أن صب لنفسه ولبينج كاسين من البورت

ــ الحقيقة ان لدى مسالة اريد ان افاتحكم فيها جميعا !
وكان وجهه محتقنا ،وهو يرفع الكاس الى شفتيه ويشربها جرعة واحدة حتى الثمالة . وقالت الام بصوتها الخفيض :
ــ نعم يا بومى ... نعم
فقال بصوت يكاد لا يسمع :
ــ كنت فى المدة الاخيرة افكر فى الزواج
وظهرت الدهشة على وجه بينج فمال الى الخلف فى مقعده بحركة احدثت صوتا مسموعا ، اما مارجريت فازداد احساسها بالهدوء وكانها صخرة تضطرب من حولها الامواج من كل الجهات . وقال بينج :
ــ اتمزح يا بومى ؟
ــ كلا . كلا . بل انا جاد كل الجد . لقد كنت أفكر حقا فى هذا
وكان هذا آخر ماكانت تتوقع ان تسميه ،ولكنه فسرلها ملاحظته على اخيها فى المدة الاخيرة من الشرود ونوبات الضحك والمرح المتقطعة لقد كان الرجل عاشقا . وبدا لها هذا فى اول الامر أدعى للضحك . ولكنها احست وراء هذه الرغبة فى الضحك نوعا من القلق والشعور بالصدمة
ــ ولكنك يابومى يجب أن تحدثنا عنها . من هى أولا ؟
ــ لا اظنك تعرفينها يا أماه . اسمها مس بريدويت . وهى فى المستشفى العسكرى القريب من هنا
فصاح بينج :
ــ لا اظنك تعنى تلك الفتاة القصيرة البدينة التى تقوم بالتدليك فى المستشفى العسكرى ؟
ــ هى بعينها . وهذه هى المراة التى سأتزوجها ... وقد خطر لى انه من الافضل ان اخبركم مجتمعين بهذا النبا
وافاق بينج من ذهوله فصاح :
ــ وماذا تنتظر منى الآن ؟ ان أهنئك مثلا ؟
ــ هذا شىء مرجعه اليك
ــ ولكن الفتاة فى نحو العشرين فيما اظن ؟
ــ أعتقد انها فى الرابعة والعشرين

ـ وای شیء هی فیما هذا انها مدلكة ؟ من این اتت ؟ ما اسرتها ؟
ـ لا ادری ما اسرتها ، وماهی اسرتك انت ؟

فجاء هذا السؤال اللاذع غريبا جدا على لسان بومی الذی لم يسمعه احد فی حياته كلها يقول كلمة مسيئة كهذه ، مما جعل بينج لا يكاد يصدق اذنيه ، وطغت دهشته على غضبه فقال :

ـ ماذا جرى لك ؟ يجب ان تدرك ان هذا الزواج غير مناسب

ـ يؤسفنی انه لا يسرك ، ولكنه سيتم وفی التاسع عشر من الشهر القادم يا بينج

ـ أتعنی انك تقدمت اليها وقبلتك وان كل شیء قد اتفق عليه ؟
ـ هذا هو الواقع
ـ اذن انت وربی احمق الحمقى !

فكاد الدم ينفجر من ملامح وجه بومی، ثم هز كتفيه هزة يسيرة وقال :

ـ شكرا لك يا بينج

ـ فكر يا رجل فی عمريكما ! وفی طبقتكما ايضا . فسوف تكون لهذا اهميته الكبيرة ! ان معرفتی بالفتاة سطحية جدا وليس عندی ای شیء ضدها ، ولكنی لا استطيع ان اتصورها فی مكانها المناسب فی هذه الدار ! ستجعل من نفسك ايها الرجل اضحوكة للمقاطعة كلها ! الرجل الذی تزوج مدلكه ! وهذا ليس بينه وبين الزواج من طاهيته الا خطوة واحدة ! الا تدری ما الذی تريد ان تصنعه بنفسك ؟ ام انت مفتون بها حتی انك لم تعد تبالی ما تصنع ؟

وكانت مارجريت منذ أعلن بومی النبا ثابتة فی مكانها ، تحاول جهدها ان تتغلب على دهشتها ، وكانت أكبر بواعث هذه الدهشة ان بومی لم يطلعها على سره من قبل ، وانه تقدم لخطبة الفتاة واتفق معها على الزواج من غير أن يصدر عنه تلميح . وآلمها ذلك ، ولكنها فی الوقت نفسه كانت تسائل ضميرها ای حق لها فی ان يفضی اليها من اسراره باكثر مما تفضی اليه من اسرارها ؟ ولم تجد جوابا مقنعا عن سؤالها ، ولم يترك لها صوت بينج العالی فرصة للتفكير الهادیء، ولكنها وجدت نفسها تنهض وتدور حول المائدة حتی تصل الى مكان بومی . ووجدته يحملق فيها بدهشة يكاد يمازجها الخوف ، لم

قالت له وهى تهمس فى وجهه :
ــ دعنى يا بومى اكون أول من يتقدم اليك بالتهنئة · انى اهنئك باخلاص قلبى

وتناولت يده وابقتها فى يديها برهة ، فوجدتها باردة كالرخام فالتفتت نحو بينج وقالت له وهى تواجه وجهه الضخم ؛ وعينيه الزرقاوين القويتين :

ــ اعتقد يابينج أنك تجاوزت الحد كثيرا · فلبومى الحق الكامل فى ان يتزوج اية امراة يشاء . فلماذا تتدخل فى شأنه الخاص ؟

فضحك بينج . وقال :

ــ انا اعلم الناس يا عزيزتى مارجريت انك احصف من ان تقرى زواج بومى من هذه الفتاة . فلماذا تتظاهرين بغير ذلك ؟

ــ ليس من شأنى ان اقر او اعترض ، وليس هذا من شـــأنك ايضا . فلنا جميعا الحق فى الزواج ممن نريد ، كما كان لك هــذا الحق عندما تزوجت من ليلى

ــ اذن انت تؤيدينه ؟

ــ نعم تأييدا مطلقا . انى أؤيده ايا كانت الفتاة التى يتزوجها . ولا ادرى كيف جرؤت على ان تكون وقحا الى هذا الحد معه !

ــ لقد اعربت له عن رايى الصريح يا مارجريت ، وهذا كل شىء وهانتذى تبدين لى الآن رايك الصريح فى، ولا اعتراض لى على هــذا

ــ انه لم يكن رايا صريحا . بل انك كنت كعادتك تفرض ارادتك ولن نخضع انا وبومى لارادة أحد يابينج ، وكلما ادركت ذلك سريعا كان ذلك افضل لك !

فهز كتفيه الضخمتين وابتسم قائلا :

ــ وهو كذلك . هذا رايك انت . والآن ما هــو راى الآخــرين ؟ اليس لهم الحق ايضا فى ان يقولوا شيئا ؟ ما رايك انت يا ليلى فى هذا كله ؟

ونظر الى زوجته التى اجابت وكأنها تلميذة تردد درسا محفوظا:

ــ انى اوافقك يا بينج .واعتقد انه من الــسخف اقدام بومى على الزواج من فتاة كهذه !

ــ وانت يا امى . ما رايك ؟

ولكن السيدة العجوز كانت قد استغرقت في النعاس . وهكذا كان شانها اذا حل موعد نومها مهما كانت المناقشة حامية ومثيرة . بل انها قد تنام فجاة وسط جملة من كلامها هي . فقال بومى :

ـ يحسن ان نجعل كوكسون ياخذها الى حجرتها

وكانت لحظات انتظار حضور كوكسون ثم دفعه المقعد كافية لتهدئة حدة التوتر . وتبينت مارجريت ذلك ، فقالت وهي تهم بالخروج :

ـ يجب ان اذهب لاطمئن على راحة امي . طابت ليلتكم

وتركت الجميع يتمون احتساء اشربتهم ، وبعد ان فرغت من عمليات الاشراف المعتادة كل ليلة ، دخلت حجرتها ، وطالعت خطاب كارول مرة اخرى . وتبينت ان صور الرجال الثلاثة كارول وبينج وبومى تراود ذهنها ، وتجوب انحاءه ، كانهم نمور تذرع اقفاصها الحديدية . فقامت الى النافذة وفتحتها . وكان القمر قد صار بدرا ، والليل رطبا ساكنا

وفي نحو الساعة العاشرة طرق الباب بومى ودخل عليها متورد الوجهبالدماء التى تكاد تطل من ملامحه .وفي عينيه بريق . وكان واضحا انه يعانى من التوتر العصبى ، ويتوق الى التفريج عن نفسه بالحديث معها ، ولم تكن هي اقل توترا منه . واشعل سيجارة وجلس بجانبها ، فقالت له :

ـ هل انصرف بينج وليل ؟

ـ نعم

ـ اظنهما شعرا بوجوب الانصراف بعد الذى قلته لهما . ولكن كان ينبغي ان أوقف بينج عند حده . مع انيأكره هذه الاصطدامات

ـ لقد احسنت جدا بالوقوف الى جانبى يامارجريت

ـ هذا اقل ما افعله بعد كل هذه السنوات التى قضيناها معا

ـ وهذا ما اخجلنى . فقد شعرت بعد اعلان النبا امام الجميع انه كان من الواجب ان اخبرك انت اولا

ـ هذا شيء لاقيمة له . فلا تعذب نفسك بسببه . واعلم ان كل ما يهمنى هو سعادتك . ولا يعنينى ماهي الترتيبات التى ستتخذها للزواج فالمهم ان تكون موفقا . واعلم انى كثيرا ما سالت نفسى لماذا

لم لتزوج !

ــ وانا ايضا كثيرا ما سألت نفسي هذا السؤال نفسه بشانك !

ــ أنا يا بومي ؟ لو انني اردت ان اتزوج لتزوجت . وهـذا من الاسباب التي جعلتني اقف في صفك . والان حدثني عن بولين

وشعرت كأنها أم تشجع طفلها على الاعتراف باسراره . فافضي اليها بمعلومات قليلة بعد استدراج كثير . قال لها ان بولين فتـاة من لندن يتيمة الابوين . وان والدها كان مستخدما في شركة التامين وان الاسرة محترمة ، ولكنها ليست على مستوى اجتماعي بالطبع

ــ اني واثقة انها ظريفة والا لما جذبتك اليها !

ــ نعم هي ظريفة . وان كان هذا لا يبدو لكل انسان طبعا . لقد قال عنها بينج انها بدينة ولكني لا اظنها بدينة ، وان كانت طبعا ليست في نحافة ليلي

ــ هل هي مغرمة بالموسيقى ؟

ــ اظن هذا

ــ وهل تحب الحدائق ؟ سيكون لطيفا جدا ان تجمعكما هـذه الهواية !

ــ اظنها تحب الحدائق ايضا

ــ اليست في الرابعة والعشرين كما قلت ؟

ــ بلى . وانا في الرابعة والاربعين . وهل لهذا اهمية ؟

ــ لا اظن . ما دام هناك تناسب بين الشخصين في كل شيء آخـر

ــ اتعنين هذا حقا يا مارجريت ؟

ــ اعتقد هذا

ــ هذا جميل . وانت على حق . فما قيمة فارق السـنوات ، وخصوصا حينما يكون الرجل هو الاكبر سنا ؟

ــ هل اني أذهب الى ابعد من هذا يا بومي ؟ واعتقد ان هـــذا الفارق لا اهمية له حتى حينما تكون المرأة هي الاكبر سنا

ــ حقا ؟

ــ ولم لا ؟

ــ هل اذا كانت بولين في الرابعة والاربعين واثاق الرابعة والعشرين ، الا يكون ذلك سخيفا ومضحكا ؟

ـ اتظن ذلك ؟

ـ الا ترين انت ذلك ؟

ـ ربما . . . ربما

ـ اننا على اتفاق في جوهر الموضوع. وهو انك لاترينني اسن بكثير من ان اتزوجها !

ـ اني يابومي اعتقد ان البشر لا يمكن ان يكونوا اسن من ان يقدموا على اى شيء لديهم القدرة عليه والرغبة فيه

ـ عظيم

ـ واذا لم يكن لديك مانع . فانا احب ان ارى بولين . متى يمكنني ان اراها ؟

ـ انت رائعة حقا يامارجريت . لم يخطر ببالى انك ستقابلين النبأ بهذه الروح . وسآتي ببولين معي غدا ان كان هذا يوافقك . ومن المستحسن ان تاتى لتناول الشاى ، لان لديها عملا في المستشفى في الصباح وفى المساء . سآتى بها بعد الظهر . ولكن لا تخبرى امى . اذ يحسن ان تقابلها في فرصة اخرى

وتركها بومى ليذهب كعادته كل ليلة الى الحديقة الشتوية وسمعته وهو يهبط الدرج يصفر بأنغام لحن شاع في المدة الاخيرة ، فادركت ان كلامها اسعده كثيرا . ثم طالعت رسالة كارول مرة بعد مرة الى ان اصبحت كل كلمة من كلماتها كائنا حيا يتعلق بها وهى جالسة وحدها في حجرتها :

« لو انك فقط فتحت لى باب الامل ووعدتنى نصف وعد . . . »

وفجاة شعرت انها لا تبالى مما سيقوله بينج او بومى او امها او العالم كله . نعم انها ستقدم على ذلك العمل الباسل الجميل الذى تشعر ان لديها القدرة عليه والرغبة فيه : ستتزوجه ! ستمنحه نفسها جسدا وعقلا وروحا . لن يعنيها بعد ذلك شيء . لان كل ما عدا هذا سيكون بمثابة خيانة للانوثة القصوى التى تشعر بها في اعماقها

وعلى فرض انه سئمها يوما وقد علت بها السن وهو لم يزل في ريعان شبابه ، فلن يضيرها ان تتركه يومئذ لامراة اخرى ، وسيسعدها ان تعيش بجمال الفعل الجرىء الذى واتتها الشجاعة على تحقيقه !!

وجلست فكتبت اليه رسالة قصيرة بسيطة ... تخبره فيها انها قد غيرت رايها وانها سوف تتزوجه . وذهبت بنفسها فالقت بالخطاب فى صندوق البريد خارج اسوار البيت . فلما فرغت من ذلك الامر الذى لا رجوع بعده ، احست بالسعادة تغمر قلبها وتفيض منه . لقد كانت هذه فرصتها الوحيدة . وقد واتتها الشجاعة على انتهازها !

ولما عادت الى البيت استقبلها بومى فى البهو وسالها :

ـ هل كنت تتنزهين ؟

فأومأت اليه براسها . فقال :

ـ لقد افادك استنشاق الهواء فائدة هائلة . انظرى فى المرآة الى لون بشرتك . ياله من لون رائع ... والحقيقة اننا كلينا لا يبدو علينا سنا

وعقد ذراعه بذراعها واوقفها بجانبه امام مرآة وصاح :

ـ انظرى ! من ذا يقول اننا كلينا قد تجاوزنا الاربعين ؟ ولكننا تجاوزناها . ومع هذا لا اعتقد اننا كنا احسن صحة ولا انضر منظرا مما نحن الان !



واتى بومى ببولين لتناول الشاى بعد ظهر اليوم التالى . وكانت كما قال بينج وكما انكر بومى بدينة قصيرة . ولكنها وسيمة ، ولها صوت يدل على ثقافة وذكاء . ولغتها فى الحديث مهذبة راقية ، وشعرها جميل ، ويداها بديعتان للغاية . فشكلها العام ليس منفرا انها مقبولة ولكن ما الذى حمل بومى على التفكير فى الزواج منها ؟ هذا مالم تستطع مارجريت ان تتصوره

وكان الجو جميلا فاخذ الثلاثة يتنزهون بين خمائل الحديقة قبل تناول الشاى . وتحدثت بولين كثيرا عن العمل فى المستشفى . ولعل هذه كانت وسيلتها لاخفاء ارتباكها ، وكان بومى يتعمد ان يعامل بولين فى الظاهر كما يعامل اى انسان آخر ويصر على اخفاء اعزازه وحبه فبدا فى كلامه معها مهذبا مجاملا جدا كعادته مع جميع الناس . لم يرفع التكليف . اما هى فلم تستطع مارجريت ان تدرك حقيقة شعورها نحو بومى ، وهل قبلت الزواج منه عن حب أم طمعا

مى المال والمركز الاجتماعى · انها لا تبدو ذات دهاء · ولعلها قبلت الزواج منه لان احدا سواه لم يطلب يدها

وبعد الشاى انتهزت مارجريت فرصة توجه بومى لاعداد السيارة كى يقلها الى المستشفى ، وقالت لبولين :

ـ اقدم اليك التهنئة وآمل ان تكتب لكليكما السعادة

ـ اشكرك كثيرا جدا · واظننا سنسعد معا لانه انسان ظريف

ولم تسنح الفرصة لمزيد من الكلام بينهما ، لان بومى عاد ، وسال مارجريت عن رايها فى بولين قبل ان يصحبها ، فقالت له :

ـ اكرر لك التهنئة . وهى فى الواقع جميلة . وما ابدع هاتين اليدين !

وبعد انصرافهما احست احساسا جازما ان بومى مهما كان لطيفا ظريفا فلن يستطيع فهم علاقتها بكارول . فلابد ان يفاجئه ذات يوم وهو بين ازهاره فى الحديقة ويعلنه برغبتهما فى الزواج . وكذلك سيواجهان معا بينج وجميع الناس : باعلان اشبه بانذار اخير منه باعتراف أو افضاء

وشهدت الايام الاخيرة من اكتوبر تحول الحرب الى طوفان من الانتصارات التى لا يكاد يصدقها العقل . فكانت اخبار النصر هى المسيطرة على الصحف والتليفون واحاديث المائدة . وكان بومى متحمسا جدا لهذه الانباء فجعله الحب والتحمس شديد الرضا عن نفسه ، وراضيا حتى عن بينج · وذات يوم قال لها وقد انقضى أسبوع على حفلة العشاء التى اعلن فيها رغبته فى الزواج :

ـ اتعلمين يا مارجريت ان بينج صار لطيفا معى جدا فى الايام الاخيرة ودعانا للذهاب الى بيته ولتناول العشاء فى الاسبوع القادم . انت وانا وبولين ؟ واظنها طريقته الخاصة فى التلويح بغصن الزيتون

وكان كلامه عن بينج بلهجة التلميذ الذى يتحدث عن الناظر المرهوب المحترم .. !

واقيمت تلك المادبة فى مساء ٣ نوفمبر . وفى ذلك اليوم نفسه وقعت النمسا الهدنة وسلمت تسليما كاملا . واحتل الطليان تريستا واقيم مجلس وطنى فى المجر · وتمرد البحارة الالمان فى كييل . وتقدمت القوات الفرنسية والامريكية ثمانية أميال على طول الجبهة

الغربية . وفى نهاية السهرة ، بعد العودة الى البيت فى الساعات الاولى من الصباح ، قال بومى لمارجريت ان الليلة كانت رائعة

وظلت مارجريت فى انتظار خطاب من كارول وان كانت فى الظاهر تقاوم كل احساس بالتطلع أو القلق . لانها كانت تعلم ان الحرب تؤخر الخطابات . وان الأحداث الاخيرة تساعد على مزيد من التأخير ولذا لم تشعر بمرارة كبيرة عندما اقبل الاسبوع الثانى من نوفمبر ولم تصلها رسالة من كارول

وفى هذه الاثناء كانت الحرب تتجه اتجاها سريعا الى نهايتها المحتومة .وكان ذلك عسير التصديق على الناس الذين تعودوا استمرار المعارك وتعاقبها تلك السنوات الطويلة . لم يصدقوا ان الحرب يمكن ان تنتهى كما بدات فى لحظة معينة ، من ساعة معينة ، فى يوم معين !!

وفى ذلك اليوم المكفهر . يوم الاثنين الحادى عشر من نوفمبر كانت مارجريت جالسة تحرر الشيكات لمصروفات البيت الشهرية ، عندما رن جرس التليفون ، وكان المتحدث بومى من مكاتب مصنع السيارات فى جلوستر :

ـ هناك شائعة قوية عن احتمال توقيع هدنة فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم .وقد تتمخض هذه الاشاعة عن لا شىء .ولكنى قدرت انك تحبين ان تعرفيها . والعمال هنا بسبب هذه الشائعة لايستطيعون العمل . وهذا طبيعى فيما اعتقد .قولى للسائق روجرز عندما ياتى لاحضارى ان ياتينى بعلبة سجائرى ، فقد تركتها على المنضدة فى حجرة نومى

وفى الحادية عشرة رن جرس التليفون مرة اخرى وسمعت صوت بومى مختلطا بصفارات المصنع وصياح مئات الناس :

ـ تم توقيع الهدنة يا مارجريت . اتسمعين صفاراتنا وهتاف العمال ؟ الجميع هنا يكاد يخرجهم الفرح عن صوابهم . سنغلق المصنع بقية اليوم . ارسلى روجرز فورا ليأتى بى

انتهت الحرب اذن . وغمرها شعور بطىء متمهل من السعادة . كان شعورا قويا بلغ من شدته انه سبب لها الما . لقد توقفت المدافع وانتهى خطر الغارات ولم يعد هناك خطر يتهدد كارول فى الجبهة .

انها تستطيع الان ان تشعر بما لم تشعر به من قبل بالعاطفة الصافية القوية التي تربطها به وكأنها كانت لا تجرؤ على حبه والحرب تهدد سعادتهما . فكأن تلك السعادة كانت محتبسة ، ثم افرج لها عنها دفعة واحدة

ورن جرس التليفون مرة ثالثة ، وتحدثت بولين من المستشفى . وكانت شديدة الفرح والحماسة . كانت تتكلم كالمجنونة :

ـ اريد ان ارقص واقفز او امشي على يدى . اريد ان افعل اى شيء لقد كلمت بومي الان في المصنع ، وطلبت منه ان ياخذنا لقضاء السهرة في لندن الليلة ، فلابد انه ستكون ثمة احتفالات تستحق المشاهدة في الويست اند . فهل تأتين يامارجريت ؟

ـ اتريدينني حقا ان آتي ؟

ـ طبعا أيتها البلهاء ! ثم ان بومي لن يذهب اذا لم تأت انت فاخلاقه لا تسمح له بالسهر مع خطيبته من غير حراسة ! وخصوصا اننا قد نسهر الى الصباح ... استعدى على كل حال لان بومي يرى ان نذهب بعد الغداء مباشرة

وجاء بومي لتناول الغداء واخذ يشرح لها مبررات تلك الرحلة ، وكأنه يعتذر عن شيء سخيف :

ـ انا لا اهضم المظاهرات والزحام . ولكن بولين مصممة على الاشتراك في افراح الليلة في لندن . ولاشك انه سيفرح قلبها ان ترى لندن متلألئة بانوارها لاول مرة بعد الحرب . ويحسن ان تأمرى كوكسون باعداد بعض الطعام لنحمله معنا . فقد لا نستطيع الليلة ان نحصل على طعام يستحق الذكر في زحام لندن . واعتقد اننا سنأخذ السيارة الليموزين الكبيرة ولا اظنك تضيقين بالذهاب معنا

ـ كلا على الاطلاق

وشرب بومي نصف زجاجة الشمبانيا ، ثم ذهب الى الحديقة ليتفقد ازهاره واشجاره . ودعا مارجريت للطواف معه ، ولكنها اعتذرت وصعدت الى حجرتها كي تبدل ثيابها . ثم نزلت الى قاعة الجلوس ، وقرأت احدى المجلات في انتظار عودته . واصدرت الى كوكسون تعليمات بشأن المشروبات التي يضعها في السيارة مع الطعام

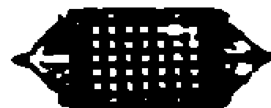
وبعد لحظات رجع اليها كوكسون وفي يده بضعة خطابات وصلت لنوها . وكان احدها دعوة لحضور سوق خيرية راقصة . وكان هناك خطابان آخران يحويان فواتير من التجار . اما الخطاب الرابع فادهشها في البداية لانه يحمل طابع بريد فرنسيا . وبخط يد لا تعرفه ولم تره من قبل وفضت الخطاب وقرات منه

« عزيزتي مس فرينشام

« اكتب اليك هذا بتكليف من المسكين كارول . لقد كان اعز اصدقائي . وكنا كلانا في غارة جوية .. وطلب مني اذا حدث له مكروه ان اكتب الى خطيبته لاخبرها انه كان في قمة السعادة بسبب الخطاب الذي وصله منها في الصباح قبل قيامنا بالغارة بساعة واحدة . وسلمني عنوانك . ولم يعد المسكين . ولذا فاني أكتب اليك لاقول أن وفاته كانت سريعة ولم يشعر بأدنى الم ..

وليم ت . جيفرسون

والقت براسها على ظهر المقعد الذي كانت جالسة عليه . ومن بعيد جاءها صوت بولين وبوسي يناديانها كي يركبوا السيارة الى مهرجان النصر



الفصل الثانى عشــر

صدام عنيف

اقبل بومى يخترق الحدائق فى بزة انيقة غاية الاناقة ، ودبوس ربطة عنقه الماسى يلمع فى ضوء الشمس . ورأته مارجريت من بعيد حينما غادر سيارته عند المنعطف وتقدم يمشى نحو الدار فى خطوات سريعة خفيفة ، والابتسام يفيض من وجهه وكأنه صـورة اخرى من اشراق السماء فى ذلك اليوم الدافىء المشمس من ايام يولية

ولما اصبح على مسافة عشر خطوات منها خلع قبعته ، فعبث الهواء عبثا يسيرا بشعره . وهتفت مارجريت :

ـ اهلا بك يا بومى

ـ لقد خطر لى ان امر بك لاستفسر عن احوالك !

وكانت هذه عبارته التقليدية التى يبادرها بها كلما حضر

ـ هل كنت تجرب سيارتك الجديدة ؟

ـ نعم ! انها آخر طراز فاخر . وبها كلّ التحسينات . كيف حالك ؟

ـ على احسن حال . وانت كذلك فيما ارى

وكانت مارجريت تجمع ازهارا من الحديقة ، ازهارا حمـراء فحملتها فى يدها واقترحت عليه التجول فى الحدائق . وهو الاقتراح الذى كانت تعرضه عليه فى كل زيارة فكان يقبله دائما فى تلهف . ويظل يسال عن آخر انباء الازهار الجديدة

واثناء التجوال سالها :

ـ كيف حال الوالدة ؟

ـ كما هى ... وكيف حال بولين ؟

ـ على ما يرام . وهذا يذكرنى بانى وعدتها ان اعود لتناول الغداء

فى ساعة مبكرة . . . والحقيقة يامارجريت انى اريد ايضا ان احدثك فى موضوع معين . . .

ــ عن بولين ؟

ــ كلا . لقد سويت هذه الموضوعات . أو على الافضل تركنا الخوض فيها . كلا يا مارجريت . ليس حديث اليوم عن بولين . بل عن بينج . . .

ــ بينج ؟

ــ نعم . ويحسن ان اكون صريحا معك . لانى ساكلمك فى موضوع وعدت بينج وعدا قاطعا الا اخبرك به . فهل ترين ان ذلك يجوز لى ؟

ــ عزيزى بومى . ياله من سؤال توجهه الى امراة لديها نصيب طبيعى من الفضول النسوى ! كيف يخطر لك ان جوابى سيكون لا ؟

فضحك واحمر وجهه قليلا ثم قال :

ــ الحقيقة ان الرجل على شفا انهيار عصبى فيما يلوح لى .. وان كان من الصعب التصديق بأن بينج يمكن ان يصاب بانهيار عصبى . ولكن امتن الحبال لابد ان ينقطع اذا اشتد الضغط عليه . ولاشك فى ان بينج اكتنفت حياته بالمتاعب والمنغصات الضخمة فى الفترة الاخيرة . من سوء الاحوال التجارية الى الاضراب العام . . . فضلا عن متاعب الاسرة

ــ هذا صحيح . وانى مسرورة لحصوله على لقب البارون . فهو فى الواقع يستحق ذلك

ــ وهذا اللقب ايضا اتعبه الحصول عليه . لان الكثيرين كانوا يحاربونه . حتى انه منذ شهر يئس تماما من صدور الانعام . ومنذ ايام افلت زمام اعصابه من يده وجعل يصيح فى المكتب ان الدنيا كلها تحاربه ، وان القدر يعاديه ، وان رجال الحكومة والعمال واولاده واسرته كلهم ضده . وخص بالاشارة . . . خصك انت !

ــ انا ؟ هل قال انى ضده ايضا ؟ ولكنه على خطأ فى هذا !

ــ لقد اعتذر بعد ذلك ، واستخرج منى وعدا بالا اخبرك . ولكنى اعتقد ان هذه الفكرة راسخة فى اعماقه . وربما نشأت لديه من كونك لا تدعينه فى المدة الاخيرة الى غداء اوعشاء

ـ وأنت أيضا لم تدعه مرة واحدة ؟

ـ وهو ايضا لم يدعني الى بيته مطلقا

ـ وهل تذهب ان دعاك ؟

ـ غالبا لا . فانا لا استريح لتمضية الوقت معه . وليس هذا لاني لا احبه او لا احترمه او لا اعجب به ، بل لميله الى السيطرة بصورة لا تستريح اليها النفس

ـ وهذا شعوري . ولكنه مخطىء فى اعتقاده أنني احاربه . فمنذ وفاة ليلي وانا اتمنى ان اخف لمعونته . ولكني لم اقدر انه بحاجة الى معونة . فهو فى العادة يضيق بكل من يبدى له انه عاجز عن القيام بكل شيء على احسن وجه

ـ هذا كله صحيح . فهذه طريقته وهذا طبعه . ولكن يخيل الى انه لو امكنك ان تفعلى شيئا يبين انك لست ضده كما يظن ، كان ذلك افضل

ـ وماذا تقترح فى هذا الشان ؟

ـ أنا لا اريد ان تصنعى شيئا تكرهينه . ولا أن يكون تصرفك واضحا بحيث يدرك أنني فاتحتك فى الامر . مجرد لفتة . واعتقد ان الانعام عليه بلقب بارون يعتبر فرصة مناسبة لهذه اللفتة

ـ وكيف ذلك ؟

ـ تذكرين اننا كنا فى الخارج عندما صدر الانعام ، فلم يتح لنا الا ان نبعث اليه برسائل التهنئة . ونحن الان فى ارض الوطن . وفى دارنا . فربما كانت مادبة عشاء صغيرة ...

ـ هنا ؟

ـ طبعا . فهذا هو اهم ما فى الموضوع . كى توجهى اليه الدعوة . وطبعا توجهينها لى ولبولين ايضا . وان كنت اتوقع منها الا تحضر

ـ سافكر فى الامر يا بومى ...

وبعد انصراف بومى ظلت معظم فترة الصباح تفكر . فتراءى لها ان الحظ قد تنكر له فى الفترة الاخيرة فعلا . وكانت البداية فشله فى الانتخابات ثم ماتت ليلى فى السنة التالية . وكانت وفاتها فجاة على اثر اصابة بالانفلونزا . واعقب ذلك اضراب عام بين عمال جميع المصانع . ثم اضراب عمال الفحم . ثم ارتفاع اسعار المطاط ، وكثير

من المواد الاولية ارتفاعا جعلْ بينج يشكو ويتذمر . ولولا الانعام عليه بلقب بارون لكانت حالته المعنوية فى منتهى السوء . وعن لهـا ان اقامة حفلة عشاء كما اقترح بومى ابتهاجا بحصول بهنج على ذلك اللقب عمل يدل على المجاملة . وينعش معنوياته

وفى المساء تحدثت الى بومى بالتليفون ثم ارسلت رقاع الدعوة الى مادبة العشاء الصغيرة فى مساء التاسع عشر من الشهر . وكما توقع بومى اعتذرت بولين . لان حالتها النفسية بسبب الحملْ لا تسمح لها بحضور مثل هذه المناسبات . وهى فى الوقت نفسه لم تكن يوما من الايام ودا لبينج او ليلى . ولكنها سمحت لبومى ان يتركها ويذهب . ومع هذا قال بومى أنه لن يسهر طويلا

ووجهت الدعوة ايضا الى بيتر اكبر ابناء بينج الذى التحق بجامعة كمبردج ، اما اخوته فما زالوا أصغر من ان توجه اليهم الدعوة . وكم ادهش مارجريت نجاح تلك المادبة الصغيرة . وكان بينج بادى الانشراح ، فاكثر من رواية الحكايات الطريفة والنكت اللاذعة . وكانت سنه الان خمسين سنة،وقد اضفت عليه مزيدا من الجراة ، فاصبح صو... ى من ذى قبل ، وضحكته المجلجلة تهز الجدران . فكان من يراه ويسمعه يعتقد انه ابعد الناس عن الانهيار العصبى . وكان ابنه بيتر لطيفا لبقا ، تبدو عليه معالم الشخصية القوية بعد ان امضى عاما فى الجامعة . وقد اصبح شابا نحيلا وسيما ازرق العينين ، متفوقا فى ملاعب الرياضة . ينم حديثه عن اطلاع واسع . فهو يتكلم بطلاقة عن فرويد وبروست وبيكاسو . وكان واضحا انه شديد التاثر بالنظريات الجديدة . ولم تكن لمارجريت دراية كبيرة بهذه المستحدثات فكانت تصغى لمايقول ابن اختها باهتمام واعجاب

وفطنت من نظرة عينيه كلما ذكر اسم ابيه ان العلاقة بين الاب والابن ليست منزهة عن الشوائب . بل انه صرح لمارجريت بقوله :

— ابى يريدنى ان انضم الى ادارة المصنع . ولكنى طبعا لن ارضخ لهذا . فانا امقت هذا النوع من العمل ..

وفى الساعة العاشرة اصر بومى على الانصراف ، فقرر بينج أن ينصرف ايضا . وصعد الجميع لتقديم التحية الواجبة للوالدة

العجوز فى حجرة نومها . ووجـ
لما طرأ عليها من ثقل السمع
بالرتبة، وعلقت مارجريت على
ـ ان الممرضة تقرأ لها جميـ
رغم ما يكلفها ذلك من رفع الـ
وفى البهو قال بومى :
ـ اليس رائعا ان تكون صـ
فى هذه السن ... فى الخامسـ
فحملق بينج فى وجهه لحظة
ـ اتسمى هذا شيئا رائعا ؟
هذه الروعة . اسأله متى امـ
الى القوة الكافية للانتصار ان ؛
وفى هذه اللحظة ادركت مار
حقيقية . وان يكن قد استأنف
ولم ينس وهو يودع مارجريت
سنوات من الانقطاع

ـدوا صعوبة فى تبادل الحديث معها
ولكنها حرصت على تهنئة بينج
ذلك بقولها :
ـع الصحف الصباحية والمسائية .
ـوت ساعات طويلة
ـحة الاعضاء حاضرة الذهن ، وهى
والثمانين ؟
ثم هز كتفيه وقال :
اتمنى على الله الا اعيش حتى ابلغ
ـت عاجزا عن العمل المثمر مفتقرا
ـع حدا لايامى !
جريت ان الرجل يمر بمحنة نفسية
ـعد ذلك فرحه الصاخب كالمعتاد ،
ان يدعوها لرد الزيارة بعد ثمانى



كان انقطاعا ولكنها لم تكن
المباشر كان مستمرا عن طريق
ليقدم اليها النصح فى مسائلها
واليه يرجع الفضل فى مضاعفة
البيع والشراء فى بورصة الاور
اخيها ووالدتها . فلم تدر ماذ
وحصافته
وفى اواخر شهر اغسطس تـ
ضواحى جلوستر بالقرب من
عليه مظاهر النعمة الحديثة . و
لان المتازين لا يطيقون معاشرة
كان يعلل ذلك بأن خدم هذه الـ
وكان معظم حديثه على المـ

ـطيعة . لان الاتصال المباشر او غير
ـدمى . وكان بينج يكتب اليها احيانا
المالية التى يعرف عنها كل شىء .
ـثروتها بعد الحرب مباشرة عن طريق
ـاق المالية . وفعل مثل ذلك بثروة
ـا يكون مصيرهم جميعا لولا جهوده
ـلقت هى وبومى الدعوة لزيارته فى
المصنع . وكان بيته فخما تبدو
كان خدمه جميعا من الدرجة الثانية
رجل حاد الطبع مثل بينج . ولكنه
الايام جميعا من البلاشفة
ـائدة عن الاضرابات . وكان اضراب

عمال الفحم لم يزل قائما . وكانما شاء القدر أن يمعن فى اغاظتـه فجاءه الساقى يقول :

ــ تحت نوافذ البيت يا سيدى جمع كبير من المنشدين . انها فرقة جوالة تغنى وتجمع التبرعات لعمال الفحم المضربين

ــ يا للعنة ! قل لهم ان يذهبوا الى الجحيم ... بل انتظر ! قل لهم انى احب ان اقابل واحدا منهم . واحدا فقط . وعندما يختارونه جئنى به !

ولما خرج الساقى لتنفيذ هذا الامر قال لمارجريت وبومى :

ــ سترون الآن مشهدا طريفا . لانهم يعرفون من انا وسيختارون لمقابلتى اخطر بلشفى فيهم . وساعرف كيف اتعامل معه !

وبعد قليل دخل القاعة شاب نحيل اللون فى نحو الثلاثين من عمره وقبعته فى يده ، ويرتدى احدى بذلات العمال الزرقاء . وحدق الغريب فى كئوس الشراب والاطباق التى تزخر بها المائدة وفى الشمعدان الضخم . وبادره بينج بقوله وهو يضطجع فى مقعده ويعض على طرف السيجار الضخم :

ــ والآن ياسيدى ما المسألة ؟

ــ انت ارسلت فى طلبى

ــ ذلك لانى اريد أن القى عليك بضعة اسئلة . اولها من انت وماذا تفعل فى جلوستر بحق الشيطان ؟

ــ انا من فرقة المنشدين لصالح عمال مناجم الفحم فى ويلز . ونحن نجمع التبرعات لزوجات واطفال العمال المضربين

ــ انك تبدو كما لو كنت لم تأكل شبعك منذ شهر !

ــ هذا صحيح فعلا

ــ الذنب فى هذا ذنبك . فلا يجوز أن تعيشوا من خير البلاد من غير ان تؤدوا عملا

ــ ....

ــ هل انت جائع ؟

ــ نعم

ــ وسيزداد جوعك الى أن ينتهى الاضراب

ــ ....

ـ وهل جميع زملائك جياع ؟

وسر مارجريت ان ترى عينى الغريب تومضان كانهمـا جمرتان ، ويصيح :

ـ نعم كلنا جياع . ولكننا نفضل الهلاك جوعا على أن نقبـل فلسا واحدا من ابن فاعلة مثلك !

وقبل ان تبدو آثار الدهشة لهذه الكلمة النابية على الحاضرين ، ترنح الشاب وسقط فوق مقعد مغشيا عليه . فاسرعوا جميعـا لنجدته وصب بومى فى فمه كاسا من البراندى . واسرع بينج يفتح النوافذ . وبعد قليل افاق الشاب . فساله بينج بخشونته المعتادة :

ـ كم عددكم ؟

ـ عشرون عازفا ومغنيا

ـ ادخلوا بعد نصف ساعة من الباب الخلفى وسـيقدم لـكم الطاهى جميعا عشاء كاملا ايها البلاشفة الانجاس . ولا تحاول ان تجادل !

ولم يكن فى استطاعة الفنى ان يجادل لو أنه اراد . وخرج معتمدا على ذراع الساقى .

وساد التوتر جو القاعة بعد خروجه . وابدى بومى رغبـة فى الانصراف كى لا يترك بولين وحدها . ولم يبـد بينج الا الحاحا يسيرا جدا لاستبقاء الشقيقين

وفى السيارة اظهر الشقيقان امتعاضهما لسلوكه الفج السوقى :

ـ ايا كان لقبه فهو لا يمكن ان يكون جنتلمانا يا بومى !

ـ كلا يامارجريت . لن يكون جنتلمانا ما عاش

وكان هذا كل تعليقهما على الموقف



وفى ذلك الصيف كان نظام حياة مارجريت رتيبا خاليا من اى تغير . فهى عادة تتناول فطورها فى الفراش ، ثم تغادره فى منتصف العاشرة فتفض بريدها وتكتب بضع رسائل . ثم تصعد الى حجرة امها فتقضى بها نحو ساعة . وتخرج من سيارتها ذات المقعدين مدة نصف ساعة ، وتعود لتناول الغداء ، ثم تخرج مرة اخرى بعـد الظهر للنزهة فى سيارتها المكشوفة وتتناول الشاى فى احدى البلاد

المجاورة ، ثم تعود لتناول العشاء . وقليلا ما كانت تدعو احـدا للعشاء ، لان بومى لا يستطيع قبول الدعوة من غير بولين . وبولين لا تحبها ، وقد ايقنت من ذلك منذ عامين على اثر مشادة كلاميـة كشفت عن خفايا الصدور

وفى المدة الاخيرة صارحها بومى بان بولين تبدى سخطها اذا فارقها وهى لا تستطيع الخروج بسبب الحمل . فادركت مارجريت ان بولين تستغل هذا الظرف لتملى على زوجها الا يزور شقيقته فى المساء . وهو فى الصباح مشغول غالبا فى العمل فى المصنع ، وزوجته لا تفتا تتصل به تليفونيا لتتاكد من انه لم يذهب لزيارة مارجريت !

وكان تعليق مارجريت على ذلك انها ضحكت وقالت :

ــ كم بقى لها على الوضع يا بومى ؟

ــ ثلاثة اشهر

اراك !

وضحك الاثنان . لانه كان من المستحسن فى هـذا الموقف ان يحملا الامر على محمل الهزل لا الجد

وفى هذه الفترة كان بينج غارقا الى اذنيه فى محاربة نقابات العمال . وكان يشعر بارهاق عصبى شديد سيسلمه الى الانهيار . ولم تفلح محاولة بومى لاقناعه بعدم جدوى هذه المعارك ضـد النقابات . لان هؤلاء الناس انما يطالبون كاى انسان بمستوى معقول من الحياة . وانهم لو وجدوا شيئا من حسن المعاملة لما جنحوا الى التمرد والاضراب . وفى هذه الحالة لن يجد المتطرفون مجالا صالحا لتهييج الخواطر

وذات صباح اختلس بومى زيارة قصيرة لها . واخبرها ان بينج قرر الدخول فى معركة الانتخابات الفرعية فى دائرة ملفورد وشعاره « مناهضة الاشتراكية » . مع انه من المعروف ان هذه الدائرة دائرة عمالية ، ولن تقوم امامه اقل فرصة للنجاح . ولكنه فيما يظهر ينشد الاشتباك فى معركة حبا فى العراك نفسه . وسيكون له فى هذه الانتخابات ما يريد من صدام خشن . ستثخنه الجراح من غير ان يفوز بشىء من غار النصر

الفصل الثالث عشر

الأب والابن

وقبل ان ينتصف شهر اكتوبر علمت ملرجريت ان بينج يواجه مزيدا من المتاعب . فالمصادمات الليلية التى حدثت فى اجتماعاته الانتخابية بدائرة ملفورد ، والتى اتت على وصفها الصحف ، كانت تدل على انه يواجه فى تلك المعركة اعنف امتحان صادفه فى حياته

وكانت هناك محنة اشد من هذا لايعرفها عامة الناس . ومصدر هذه المحنة ابنه البكر بيتر الذى اثار سلوكه فى كمبردج سخط والده الشديد . ففى ذات يوم اتصل بومى بملرجريت فى الصباح تليفونيا وقال لها :

ــ لم استطع أن استخلص من بينج ما الذى ارتكبه الفتى بالضبط واعتقد انه اسرف فى الانفاق ، او انحرف فى هذا الاتجاه او ذاك . وبينج على كل حال ثائر ثورة لا يتصورها العقل لهذا السبب . لم يكن ينقصه الا هذا وهو يلاقى الامرين من المعركة الانتخابية الفرعية ومتاعب المصنع ...

ــ اتظن اننا نستطيع أن نمد يد العون ؟

ــ العون ؟ لمن منهما ؟

ــ لكليهما . او لاحدهما فهذا اعتبار ليست له اهمية كبيرة ان استطعنا ان نصلح ذات بينهما

ــ فى وسعك ان تحاولى ذلك ان شئت . اما انا فقد حاولت ولم تكن النتيجة مشجعة . لقد اقترحت عليه ان اسرع الى كمبردج واتحدث الى الفتى بطريقة ودية . ولكن بينج قال ان مايحتاج اليه ذلك الفتى ليس الحديث الودى بل حبل المشنقة ... فاذا كان هذا

هو اتجاه تفكيره فاظن ...

نعم انها تستطيع ان تخمن معظم تصرفات بينج واتجاهات تفكيره. ولكن المسألة كانت ذات صبغة هامة بالنسبة لها رغم اجتهادها في ابعادها عن ذهنها ، باعتبارها مسالة لا تخصها . وظلت هذه المشكلة تلح في تفكيرها . يا لاسرة اختها الراحلة من اسرة عجيبة ! فهذا بيتر في الثامنة عشرة في الفرقة الاولى بالجامعة . وهذا ميكي في الثانية عشرة بالفرقة الاخيرة بالمدرسة الثانوية وهذه جون في السادسة عشرة رئيسة القسم الداخلي بمدرستها الراقية . وهذا بريان في الخامسة عشرة يحذو حذو ميكي خطوة بخطوة . وهذان هما افريل في العاشرة وروبرت في السابعة في مدرسة ابتدائية داخلية في شلتنهام . وكلهم اشبه ببينج منهم بليلى . فشخصياتهم جريئة وفيهم نصيب ضخم من غريزة النزال . وكانت ليلى في حياتها عاجزة تمام العجز عن سياسة امورهم ، ولذا نفضت يديها منهم في سنواتها الاخيرة ، وادخلتهم جملة في المدارس الداخلية . فهذه المتاعب التي يثيرها بيتر ربما لم تكن الا مناوشة اولية تسبق معركة طويلة بينه وبين الاسرة لابد في النهاية ان تنتهي بهزيمة بينج

وشعرت مارجريت مرة اخرى بشيء من الشفقة به ؛ فهي تعلم تمام العلم انه يخفي وراء مظهره العاصف الجاف تعلقا حقيقيا وحنانا على اطفاله . وانه انجب كل هذا العدد من الاطفال لانه يحب الاطفال ويريدهم

ولذا شعرت مارجريت وهي تقود سيارتها نحو ملفورد ذات صباح من شهر اكتوبر بثقة غريبة تملأ جوانحها . وكان رايها قد استقر على مواجهته صراحة وسؤاله بلا مواربة عن موضوع بيتر . وادهشها انها لم تشعر بعد ان استقر رايها بادنى خوف منه

ووصلت الى ملفورد قبل الظهر وهي بلدة صناعية بالقرب من برمنجهام ، تزدحم بالمصانع وخطوط السكك الحديدية وبصفوف متشابهة من الاكواخ . وتعتبر قلعة من قلاع العمال الانتخابية . لان نائب البلدة كان دائما من ذلك الحزب ، فكان ترشيح بينج لنفسه هناك عملا من اعمال التحدي المقضي عليه بالفشل سلفا . وامام مقره الانتخابي رأت لافتات ضخمة بحروف نارية « انتخبوا بينجلي

واخذلوا الحمر ! » .. وبعد قليل وجدت نفسها تواجهه براسه الضخم وكتفيه العريضتين العاليتين وشعره القصير الاشهب ، فكأنه خليط عجيب من لويد جورج وهندنبرج . كان يبدو قويا كالجبل الراسخ . بيد ان نظراته نمت عن ارهاق عصبى شديد . ولما خاطبها بدا صوته كالرعد الضعيف :

ـ مارجريت ؟ ما الذى جاء بك الى هنا ؟ هل كل شيء على مايرام؟ وبومى ؟ والوالدة ؟ وبولين ؟

ـ كلنا بخير . ولكنى فكرت فى الحضور لمقابلتك عندما سمعت أن هناك متاعب بخصوص بيتر . فخطر لى اننى ربما ...

فقاطعها بحدة قائلا :

ـ بيتر ؟ لا تشغلى نفسك به . اظنك كنت مفتوحة الاذنين لذلك اللغط الفارغ الذى يدور بصدده ؟

ـ قلت لك يابينج انه وصل الى علمى وجود مشكلة تتعلق به . وانه خطر لى انك ربما كنت مشغولا هنا فى الوقت الحاضر ولذا قد استطيع القيام بدور فى حل هذه المشكلة نيابة عنك

وثبتت نظراتها فى عينيه كأنها تتحداه ان يكون فظا . فقال برقة تخفى تهكمه :

ـ ولكن كيف بالله تظنين انك مستطيعة مد يد العون ؟

ـ بينى وبين بيتر صداقة قوية . انه صلب الراس كما اعلم ، ولكنى اظن ان لى بعض التاثير عليه

ـ اعظم من تاثيرى انا ؟

ـ الجواب نعم مادمت مصرا على السؤال .

وتوقعت أن ينفجر بركان غضبه . وانتظرت ذلك الثوران بهدوء شديد . ولكنه سالها بكل هدوء :

ـ وهل تعرفين موضوع المشكلة ؟

ـ كلا

ـ اذن أنت تتكلمين على غير أساس . فلو عرفت الحقيقة لادركت انك لاتستطيعين شيئا

ـ اذن خبرنى هذه الحقيقة

ـ ياعزيزتى مارجريت . انا لا اريد لك ولا لغيرك أن تتعبوا

انفسكم ولصدعوا رءوسكم بمسالة خصوصية تماما محصورة بينى وبين ابنى . لقد كان فضلا منك ان تاتى وانا اقدر دوافعك . ولكنك فى الواقع ضيعت وقتك . والآن تعالى نتغدى معا ان لم تكونى فى عجلة من امرك

وفى هذه اللحظة دخل احد الموظفين وقال لبينج :

ــ موعد الاجتماع الانتخابى امام مصنع صهر المعادن بعد خمس دقائق ياسيدى . والسيارة معدة

ــ يا الشيطان ! لقد نسيت هذا تماما . ولكن لا باس بهذا يامارجريت . تعالى معى وسننتهى من هذا الاجتماع بسرعة ونتغدى بعد ذلك

ــ ليكن

ونزلا الى الشارع وركبا معا سيارة فورد صغيرة مكشوفة ، اخترقت بهما شوارع وازقة ضيقة بين بيوت متلاصقة . وكان بينج يتحدث طول الوقت عن اوكار الشيوعية وعملاء البلاشفة والمهيجين المحترفين . ولكنها لم تكن ملقية اليه بالها معظم الوقت

وعندما وقف السائق بالسيارة امام مصنع الحديد الكبير بدأت صفارات المصنع نشيدها المزعج . كانت لحظة انصراف العمال للغداء وتدفق المئات من الرجال والنساء من جميع انحاء المصنع . وفى مدى دقيقة واحدة كانت السيارة محاطة بجمهور صاخب لاغب . وبينج واقف ليلقى خطبته . ولكن جمهوره من العمال لم يظهر اى استعداد للاصغاء . فظل يشغب على الخطيب بالصفير والعواء والنهيق . فشعرت مارجريت بسخافة حضورها هذا المشهد . وان سخافة بينج كانت اشد حين دعاها للحضور . ومع ذلك شعرت بمتعة لخروجها من دوامة حياتها الرتيبة الى مثل ذلك المشهد المثير

وظل بينج يجار ويصيح . فاستطاع بفضل الاصرار والمثابرة ان يتغلب على الشغب . وظهرت على ملامحه الضخمة امارات الزهو والنشوة عندما تمكن من ارغامهم على الاستماع اليه . وكان الشرر الذى يتطاير من عينيه وهو يصب عباراته النارية بعد ذلك يجعل منه صورة رائعة لجواد عتيق من جياد الحرب استثارت كوامن

النزال فيه دقات الطبول ودوى الرصاص . وكانت عباراته نفسها تبدو هزيلة بالقياس الى صورة ملامحه وتعبير نظراته . كان اقوى مافيه ليس عقله ولا لسانه ، بل تلك الحيوية الطاغية التى شعر بها جمهور خصومه شعورا حسيا خفيا فانكمشوا متضائلين امامه جملة ووحدانا

والفى خطبته كلها كلمة كلمة وحرفا حرفا . ولكن من غير طائل . لان تجريحه الشديد لخصومه وتنديده العنيف بهم حرى أن يكسبهم عطف السامعين . وعجبت مارجريت كيف يطمع فى كسب معركة انتخابية بهذه الوسائل ؟ ولماذا وهذه اسلحته يصر على خوض مثل تلك المعركة ؟

وشعرت مارجريت بالارتياح الشديد عندما بدأت السيارة تتجه بهما الى وسط المدينة . وفى خير فنادقها اتخذا ركنا لتناول الغداء وظل طول الوقت يكلمها بصوته المرتفع متفاخرا بآرائه . وكان واضحا أنه مسرور بصحبتها . وصارحها بان ثباتها بجواره فى ذلك الاجتماع الصاخب اثار دهشته واعجابه . ثم سالها عن رايها فقالت ببساطة :

ــ ان موقفهم ليدهشنى . فلو كنت اعيش فى خرائب ملفورد مثلهم لاعتنقت آراءهم حتما

ــ هذا هراء يامارجريت . وان كنت اجد لك عذرا أكثر مما اجده لفتى تربى فى ارقى المدارس ، ودرج فى مهاد الترف والنعمة . تصورى أن ابنى يتصدى لخصومتى وينضم الى ناد للعمال فى كمبردج ويمسى شيوعيا !

ــ وهل هذه هى كل المشكلة ؟

ــ يا الهى ! وماذا تريدين العن من هذا ؟

ــ لقد ظننت المسالة خطيرة حقا

ــ انها خطيرة بلا شك حين يكون هذا الفتى ابنى انا

فسالته باسمة وبكل بساطة :

ــ لماذا ؟

ــ اتقولين لماذا ؟ اليس الامر واضحا غاية الوضوح ؟ انظرى الى الى مركزى . الى سمعتى . الى ...

ـ وكيف يمكن ان يؤثر سلوك بيتر فى هذا كله ؟

فحملق فى وجهها بعينين تتقدان كالجمر ، واخرج من حافظته قصاصة من قصاصات الصحف الشعبية . وكان عنوانها : « الابن يخطب ضـد ابيه ... موقف سـياسى فريد فى ملفورد » وقرات القصاصة :

« من بين الشخصيات التى تقرر قيامها بالقاء الخطب الانتخابية لصالح المرشح الاشتراكى فى معركة الانتخابات الفرعيـة بدائرة ملفورد ، المستر بيتر بينجلى ابن السير اوين بينجلى المرشح المناهض للاشتراكية فى هذه الدائرة عينها . وقد اثار هذا الموقف الفريد فضول جميع الناس فى الدائرة . فمستر بيتر بينجلى شاب دون العشرين من العمر وطالب بجامعة كمبردج »

ولما ردت اليه مارجريت القصاصة سالها :

ـ اترين هذا الموضوع تافها هينا ؟

ـ لعل فيه من الطرافة اكثر مما فيه من التفاهة !

ـ طرافة ؟ هانتذى ترين انى اقاتل ضد جميع الاعتبارات فى هذه المعركة . ثم ارى ابنى البكر يدخل المعركة ليقاتل فى صفوف اعدائى اتسمين هذا شيئا طريفا ؟

ـ سواء كان طريفا او غير طريف . فهذا شيء اصبح مالوفا فى ايامنا . فالبدعة الجديدة ان ينضم ابناء الاغنياء الى حزب العمال . انظر الى بلدوين !

ـ انى ادرك الآن كم اساء اليه انضمام ابنه الى الاشتراكيين !

ـ بالعكس ! لقد افاده هذا كثيرا لانه اثار اشفاق الناس عليه

وكانت هذه العبارة القشة التى قصمت ظهر البعير . فتقلصت ملامحه وصاح بها عبر المائدة :

ـ وهل تظنين انى ابتهج لشعور الناس نحوى بالشفقة ؟ انى استطيع ان احتمل كل شيء فى الدنيا ماعدا هذا !

ولكنها كانت مشفقة عليه آسفة له . فمنذ بضع سنوات كان من المع الشخصيات فى انجلترا ، ولم يكن احد يتوقع له التعثر فى يوم من الايام . وهاهو ذا الان يشعر بتألب جميع القوى والعناصر ضده . وقالت له وهى تنهض منصرفة :

ـ ربما قابلت بيتر قريبا يابينج
فاشار بيده اشارة ليس لها معنى معين وقال :
ـ وهل املك ان امنعك من رؤياه ؟



وبعد ثلاثة ايام رحلت الى كمبردج بالقطار . واستقبلها بيتر بسرور شديد قائلا :

ـ ما اعظم ابتهاجي بحضورك ياخالتى ملوجريت . لانى كنت بحاجة ماسة للتحدث معك

ـ وانا كذلك . وهذا هو سبب حضورى

وفى حجرته التى تطل على الفناء الكبير لكلية الثالوث بادرها بقوله :

ـ اظنك تعلمين اننى ساخطب فى ملفورد ؟

ـ علمت هذا . ودهشت لاننى لم اكن اعلم انك تهوى الخطابة

ـ لم اكن اهواها فى البداية . ولكنى جربتها فى اجتماعات الاتحاد واظهر بعض الناس تقديرا لموقفى الخطابى

ـ ان الخطابة شيء جميل وموهبة عظيمة

ـ عندما يكون الانسان متفوقا فيها . ولكن اخشى أن أكون متحدثا من طراز عادى جدا

ـ التمرين كفيل برفع المستوى وتلافى الاخطاء . واظن اهل ملفورد وجهوا اليك الدعوة كى تلقى خطبتك هناك ؟

ـ نعم . فمرشح العمال له صديق فى نادى العمال هنا . وكنت قد وعدت النادى بالمساعدة فى اية معركة انتخابات فرعية . وكان هذا قبل ان اعلم ان والدى ينوى ترشيح نفسه فى ملفورد . فلم يكن فى وسعى التنصل من وعدى بخصوص مسالة عامة بسبب عائلى خاص

ـ بل يبدو لى أن ما تسميه سببا عائليا خاصا حرى أن ينهض عذرا لو انك اردت الخروج من المازق حقا

ـ ربما . ولكنى لم ارد ذلك !

فصمتت وجعلت تنظر الى وجهه الجاد . انه شديد الشبه بابيه . وهو مثله مقاتل مطبوع . وقالت له بعد حين :

ــ اعطنى سيجارة يابيتر

وللفور تلاشت الحدة من ملامحه وحلت محلها الدماثة والرقة وهو يقدم لها انواعا مختلفة من اللفائف الامريكية والمصرية ثم قال لها :

ــ انا لا اقدر رايا لاحد من افراد الاسرة مثل تقديرى لرايك . ولذا أحب ان تصارحينى به

ــ هذا ما حضرت بسببه يابيتر سواء طلبت منى رايى او لم تطلبه . وينبغى أن تعلم قبل كل شىء اننى لا الومك على معتقداتك السياسية ايا كانت . فهذا من شانك وحدك . ولكنى اعتقد فى الوقت نفسه ان تصديك لمساعدة خصم ابيك فى الانتخابات بهذه الصورة الواضحة ليس خطا بمعنى الكلمة ولكنه فساد ذوق . هذا هو رايى وارجو الا تضيق به

فاحمر وجهه احمرارا شديدا لان تهمة فساد الذوق لمست فيه وترا حساسا وقال :

ــ الحقيقة اننى كنت افكر فى تغيير موقفى لو لم يصلنى من والدى خطاب عاصف عنيف . ويكفينى أن اطلعك عليه

وقدم اليها اربع صفحات مكتوبة على الآلة الكاتبة على اوراق المصنع . وكانت العبارات مما لا يصدر عن رجل متزن . وناهيك باملائها على سكرتيره . فما اعنف ما تضمنته من الشتائم والتهديدات لان بيتر انضم الى ناد لا يرضى بينج عن لونه السياسى . فلما فرغت من تلاوة الخطاب سالها بيتر :

ــ اتلومينني الآن ؟

ــ لا الومك اطلاقا

وحضر الغداء الذى اوصى به بيتر ومعه زجاجة من الشمبانيا المثلجة . وانصرفا لتناوله وكان الحديث على المائدة فى موضوعات عادية . ولكن مارجريت فاجاته فى نهاية الطعام بقولها :

ــ ان هذا الخطاب يابيتر يبدو غير معقول اطلاقا . غير معقول بحيث لا يمكن ان نحاسب عليه كاتبه . لانه يدل على أن الكاتب لم يكن مالكا زمام نفسه . وينبغى أن تعلم وتدرك ان الارهاق فى العمل قد يؤدى بالانسان الى الانهيار العصبى

ــ وهل تظنين ان رجلا مهددا بانهيار عصبى يخوض معركة

انتخابات فرعية معادية بهذه الصورة ؟

ـ لا يقدم على هذا ايضا رجل يملك زمام نفسه

ـ ان والدى رجل عنيد يحب التحدى . كنا ونحن اطفال نراه يلغى ارادة امى ، ويفرض رايه عليها بلا هوادة . وكانت هى تتحمل منه هذا . اما نحن اولاده فلن نتحمله

ـ انه يحبك كثيرا يابيتر . بل يحبكم كلكم

ـ ولكن طريقة المعاملة اهم لدينا من الحب

ـ انه يعامل جميع الناس بهذا الشكل . هذا طبعه ولا حيلة له فيه

ـ ونحن لا حيلة لنا فى العجز عن احتماله . انه يعاملنا معاملة احط من معاملة الخدم . ولا تحاولى الدفاع عنه فهو من القوة بحيث يتحمل نتيجة اخطائه

ـ انا لا ادافع عنه وانما اريد ان اذكرك باشياء معينة . اولها انه تعرض فى المدة الاخيرة لقلق نفسى شديد

ـ ان كنت تعنين متاعبه فى العمل والسياسة فانا اعتقد انه جلب تلك المتاعب على نفسه . فهو ميال للتحدى من غير روية ، شديد التجنى على خصومه فى الراى . فلا يأومن الا نفسه لتألب الناس عليه

ـ انى اعرف هذا ولكن المتاعب هى المتاعب على كل حال . ومن متاعبه مالم يكن له فيه يد . مثل وفاة والدتك

فلربد وجهه وقال بجفاء :

ـ هذا موضوع لم اكن احب الخوض فيه حتى لا اقول قولا جارحا . فالحقيقة التى نعرفها جميعا فى بيتنا انه لو لم تنجب امى هذه الشرذمة كلها من الاطفال لما عوجلت وهى بعد فى هذه السن الصغيرة !

ـ وهذا هو رايى ايضا يابيتر !

وادهشه هدوؤها فصاح :

ـ الا ترين ان هذا شىء فظيع ؟

ـ فظيع جدا

ـ الا يدفعك هذا لكراهية ابى ؟

ـ كلا . فانا احب الاطفال جدا فلا املك ان اكره احدا لمحبتـه اياهم ورغبته فيهم

ـ اما انا فارى هذا شيئا مخشيا للنفس

ـ لقد كانت وفاتها صدمة له على كل حال

ـ هذا بفرض انه كان يهتم بامرها حقا . ولو انه كان متعلقا بها لما ترك حياتها تذوى وهو متعمد ، فى سبيل ارضاء نزعته للابوة الكثيرة العدد

ـ انك مجادل بارع يابيتر ولكنك لن تصل الى اقناعى . والذى لاشك فيه أن والدك يواجه منذ انتهاء الحرب مشكلات كثيرة ...

ـ اعلم هذا . واعتقد انه يتحسر على سنوات الحرب باعتبـارها العصر الذهبى لامثاله من الراسماليين الذين استفادوا منهـا ولم يشتركوا فى القتال

ـ انك شديد القسوة يابيتر على أبيك وتصوره فى صورة وحش لا قلب له

ـ ليس بالضبط انه ليس بلا قلب ، بل آفته انه بلا خيال . فلم يستطع ان يتصور ويلات الحرب وظنها نوعا من التنافس الرياضى او المعارك الانتخابية . وانا حين اراجع تاريخ الاسرة فى الحرب اشعر بالخجل . فلم يشترك احد افرادها فى المعارك ولكننا جميعا اثرينا من صنع محركات الطائرات والسيارات للاغراض الحربية . ولم شعر احد من افراد اسرتنا جميعا بلحظة قلق شخصى او اسف او الم

ـ بل كان منا من عانى هذا يابيتر

ـ من اذن ؟

ـ انا

ـ انت ؟

فقالت له بكل هدوء :

ـ لقد كان لى صديق من اعز من عرفت من الناس واحبهم الى قلبى . وقد لقى هذا الصديق حتفه فى الميدان قبل الهدنة بخمسة

ايام ، وكان فتى امريكيا لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره وقد التقيت انت به ذات مرة

فاختفت امارات العداء من وجهه وقال برنة ندم :

ـ اني آسف جدا ... لم تكن لدى ادنى فكرة ... أرجو ان تصفحي عني . فانا لم اقصد ايذاء شعورك ... والحقيقة انني حين اتحمس لفكرتي تخرج من فمي ابشع الاقوال

ـ نعم . مثل ابيك تماما ...

وطفرت الدموع الى عينيها ومدت يدها عبر المائدة وربتت على يده :

ـ لا باس يابيتر . لست غاضبة . بل واعتقد أن فيما قلته الكثير من الصواب . فنحن فعلا اثرينا بسبب الحرب . ولم نتالم كثيرا اذا قيس ذلك بما عاناه سوانا . ولكن لم تكن لنا فى ذلك حيلة . لان الثراء والالام كانت مصائرها كلها فى ايد غير ايدينا ... والان هل نخرج لنتمشى قليلا ؟

وتقبل اقتراحها بسرور ، وخرجا معا الى الحدائق المحيطة بالجامعة . وكان البرد شديدا . وكان عارى الراس لا يرتدى معطفا . ولكنه كان يشع قوة وحيوية . فلم يفتها ان تدرك شبهه فى هذا ايضا بابيه . انه مثل ابيه فى كل شىء : فى تغير المزاج من النقيض الى النقيض ، وفى الاندفاع العنيف كالاعصار ، ثم الندم والصفاء والرقة بعد انتهاء العاصفة النارية . ولما رات فى العداء بين الاب والابن وفى الكراهية بينهما مدعاة للسخرية ومفارقة قوية

وفى بعض الطريق قال لها :

ـ اظننى اذكر ذلك الامريكى الذى تتحدثين عنه . لقد احببته . واذكر انى القيت عليه اسئلة كثيرة عن الجيش الامريكى

وتناولا الشاى فى مقهى . ولم يتحدثا عن مسالة العلاقات بينه وبين ابيه كثيرا او قليلا . ولكن على رصيف المحطة . وقد اوشك القطار ان يتحرك بها قال لها فجاة :

ـ سالغى رحلتى الى ملفورد . لن القى تلك الخطبة

ـ انى سعيدة بهذا يابيتر وشكرا لك على ضيافتك

ـ ارجو ان تكررى الزيارة !

ـ سأتصل . وداعا !

وعندما وصلت الى دارها ، كتبت رسالة قصيرة الى بينج لتخبره برحلتها الى كمبردج ، وان بيتر سوف لا يشترك فى الحملة الانتخابية





الفصل الرابع عشر

بعد المعركة

اسفرت المعركة الانتخابية الفرعية فى ملفورد عن خذلان بينج بخمسة آلاف صوت ضد اربعة عشر الفا فاز بها خصمه العمالى الاشتراكى . وفى اليوم التالى اذيع رسميا ان مؤسسة لوفل فرينشام سوف لا تدفع ارباحا للمساهمين تلك السنة . ولم تدهش مارجريت لاى من النبأين ولكن بومى أرسل اليها بعد يومين مذكرة قصيرة عن أعمال الشركة قال فيها :

« ان العذر الرسمى لسوء الميزانية هو اضراب عمال الفحم . ولكنه عذر ظاهرى . فلو لم يكن هذا الاضراب لما كانت حالة المؤسسة افضل مما هى عليه . واعتقد أن بينج لم يعد يحسن تصريف الامور . »

ولم يزعجها هذا التعليق لان مواردها الخاصة من اسهم الشركات الاخرى تكفيها وزيادة . وكذلك موارد امها . فلن تحتاج الى ضغط المصروفات فى هاى ستاو . واما عن بومى فحالته ميسورة جدا ، ولا تشعر باى قلق من نحوه . فاذا ضير احد حقيقة بهذه الازمة المالية فهو بينج نفسه . واحست فى اعماقها باشفاق عليه . وهو اشفاق لم تستطع التخلص منه . مع انها تعلم انه لا مبرر له الا التحيز لذلك الرجل رغم عيوبه جميعا !!

وهذا التحيز هو الذى دفعها غداة المعركة الانتخابية أن تركب سيارتها الى جلوستر وتزوره فى داره . وكان البرد قارسا بعد ظهر ذلك اليوم — وهو يوم سبت — ولم تكن تتوقع فى الغالب ان تجده فى البيت . بل وتمنت فى سريرتها الا تجده . ولكنه كان هناك بمفرده فى قاعة الجلوس الواسعة يطالع احدى المجلات . وعلى الفور

فطنت الى مدى قسوة الوحدة التى يعيش فيها هذا الرجل . وهى تعلم ان عدد اصدقائه الحقيقيين قليل رغم كثرة معارفه . فمعظم الناس قد قطعوا صلاتهم به منذ زمن بعيد ، لانه ليس من ابناء العلية وليس جنتلمانا بالمعنى الرفيع للكلمة . والقلة الباقية انصرفوا عنه منذ بدا نجمه فى الافول ..

واذهله ان يراها تدخل عليه . ولكن استقباله لها كان حارا . وقال متهكما وهو يصافحها بمودة :

ــ اظنك جئت لتهنئنى ؟

ــ لكم تمنيت ذلك . والواقع انى جئت لانك لم ترد على خطابى الذى ابلغتك فيه نتيجة رحلتى الى كمبردج

ــ اعتذر اليك عن هذا التقصير . فقد كنت مشغولا بدرجة لا يتصورها العقل . واعتقد انك تدركين هذا

ــ لا باس . والحديث الشخصى افضل على كل حال

ــ طبعا . ولابد أن نتناول الشاى معا

وتأملته وهى تجلس قبالته فلم تستطع ان تتبين من سحنته ونظرته هل هو منشرح المزاج او منقبضه . وكانت ابتسامته شبيهة بالابتسامة الابوية . واشعل سيجارا ثم قال لها :

ــ اذن كانت رحلتك الى كمبردج موفقة . ولابد أن بيتر اتعبك

ــ كان معقولا جدا فلم أحتج الى مجهود كبير فى اقناعه

ــ اى معقولية هذه ؟ اترينه معقولا جدا لانه تراجع عن مهاجمتى علنا ؟ لقد انتصرت واقنعته . ولكن ليتك لم تنتصرى !

ــ لماذا ؟

ــ الا ترين ان فى ذلك اذلالا لى ؟. فهو دليل واضح على انه يكن من التقدير لخالته اكثر بكثير من تقديره لابيه !

ــ اطلاقا يابينج . كل مافعلته اننى ناقشته بهدوء . ولو انك فعلت ذلك لخرجت بالنتيجة عينها

ــ تعنين بهذا اننى ما كنت لافعل ذلك ؟ انى مدرك تماما يامارجريت انك لست من المعجبين بى . واعلم انك ظللت عشرين عاما تتجنبيننى جهد استطاعتك . والآن وقد تقدمت فى السن ، وضاق صدرى جئت تكشفين لى عن سوء رايك فى

ـ لماذا تقول هذا ؟ على اى اساس ؟
ـ اليست هذه هى الحقيقة ؟
ـ كلا
ـ اتريدين ان تقولى ان رايك فى حسن ؟
ـ لا اريد ان اناقش الآن رايى فيك
ـ ولم لا ؟ خبرينى بحقيقة رايك فى . لقد كنت دائما مستقيمة التعبير . ولا تحاولى ان تراعى شعورى . لقد صمدت دائما للعواصف والصعاب . فصارحينى الآن برايك السافر فى شخصى

واحمر وجهها ازاء هذا التحدى . واجابته بحزم :
ـ ساخبرك اذن مادمت مصرا . انى اعتقد انك رجل كان فى وسعه ان يغدو عظيما جدا ولكنه لم يصبح عظيما . والسبب فى هذا ليست الظروف الخارجية بل شيء فى دخيلة نفسك . فوسائلك عنيفة وتفكيرك فى الامور من وجهة نظرك تفكيرا متحيزا . وقد اشتدت هذه الظاهرة فى الفترة الاخيرة فتوالى فشلك
ـ عظيم ! اليس هناك شيء احسنه ؟ الا احسن ادارة مصنع للسيارات مثلا ؟
ـ تعلم كما اعلم انك حتى فى هذا لم تعد ناجحا كذى قبل . واما حياتك فى الاسرة فلست بحاجة الى الحديث عنها . فحتى ابناؤك بدءوا يتالبون عليك
ـ اظن ان توقف الشركة عن دفع ارباح للمساهمين هو الباعث الاساسى لك على هذه الصراحة المفرطة فى نقدى . فيوم كانت الشركة تؤدى ٨٠٪ ربحا سنويا كنت فى نظرك رجلا لا عيب فيه !

فنهضت مارجريت واقفة وقالت :
ـ اظن من المستحسن ان اتركك الان . فانت لا تعى ما تقوله

واخذت تجتاز القاعة الواسعة بخطى بطيئة نحو الباب . حتى اذا وضعت يدها على مقبضه لتفتحه سمعت صوتا اجشا يصيح من خلفها :
ـ مارجريت ... مارجريت اذاهبة انت حقا ؟

والتفتت وراءها لتراه معتمدا براسه على كفيه . وكانه كبر عشر سنوات . كان اشبه بمحارب قديم خرج محطما من معركة طويلة .

ـ آسف يامارجريت . فلا ادرى ماذا عراني في المدة الاخيرة . لا تذهبي

واحست انها غفرت له كل شيء فابتسمت وجلست . فقال بصوت اجش :

ـ فيما قلته لي كثير من الصدق

ـ حقا ؟ وفيما قلته انت ايضا كثير من الصدق . اننا لم نقدم لك الشكر على شيء مما فعلته لنا . وهو شيء كثير . انت الذى رعيت مصالحنا واقمت دعائم الشركة . وصنعت لنا ثروتنا . ولا اذكر اننا ابدينا لك مقدار قلامة ظفر من الامتنان

ـ كلانا اذن آسف . مع اختلاف دواعي الاسف

ـ هو كذلك ان شئت

فنهض على قدميه فجاة وضغط زر الجرس وامر الساقي باعداد الشاى ثم التفت اليها قائلا :

ـ ليتنا كنا صديقين طيلة هذه السنين !

ـ ليت . . . واظن ان الذنب في هذا ذنبي يا بينج

ـ وذنبي انا ايضا فقد كنت اظنك تمقتينني

ـ انا ؟ ربما . ولكني لم اعد اذكر شيئا من ذلك

ـ حقا ؟ حتى ولا هذه المشاحنة حول خطبة بومى ؟

ـ آه . ولكني اعني ما قبل ذلك . يوم انضممت الى الشركة

ـ اهذا هو الذى لم تعودى تذكرينه ؟ اني اذكر هذه الفترة تماما .اذكر اول مرة التقينا فيها وكان بومي يطوف بكما انت وليلى المصنع وقدمني اليكما واعتقد انك شعرت بالنفور مني من اول نظرة

ـ لا اظن انني شعرت بنفور يومئذ

ـ ليتني عرفت ذلك في حينه . . .

ـ لماذا ؟

ـ لا ادرى . ولكن الامور ربما اتجهت بعدها غير الوجهة . . .

ولم يزد . وسكتت هي فلم تساله ايضاحا

وعلى مائدة الشاى تحدثا حول ذكريات قديمة كثيرة . وجرى ذكر لوفل وكيف كانت وفاته . وبينج في زيارته . . وكانت مارجريت في باريس في ذلك الوقت

وقبل انصرافها اقترحت عليه ان يذهب لزيارة بيتر فى كمبردج. فقال على الفور :

ـ ساذهب اذا انت اتيت معى

فلم تتردد فى الموافقة لحظة ، واحست بسعادة غريبة تغمرها وهى تقود سيارتها عائدة الى هاى ستاو . كانت سعادة مغمورة بالشعور بالقوة والشجاعة والقدرة على اصلاح ما بين الاب وابنه . وبعد ذلك سيكون من اليسير تغيير حالة بينج النفسية . وقررت ان تكتب فى تلك الليلة خطابا الى بيتر ، ولكنها عندما وصلت الى الدار رات سيارة بومى هناك . ثم شمت رائحة سجائره المصرية فى البهو . ولما دخلت حجرة الجلوس وجدت بومى نفسه مستغرقا فى النعاس فوق مقعد وثير امام نيران المدفاة ، ودهشت وربتت على كتفه فاستيقظ ماخوذا وصاح وهو ينظر الى الساعة وينهض واقفا :

ـ يا الهى ! لابد اننى نمت زهاء ساعة ! كيف حالك ؟ هل وصلت الان فقط ؟ قيل لى انك ذهبت لزيارة الجبار الاعظم بينج !

واومات براسها ثم سالته عن صحة بولين فقال :

ـ بولين على ما يرام . وكذلك انت فيما ارى . فلا اعتقد اننى رايتك فى صحة احسن مما انت الان

ـ هذا بتاثير الرياح الباردة

ـ نعم البرد شديد ... ما رايك فى التوجه الى الحجرة الاخرى و ...

وكف عن الكلام فقالت ضاحكة :

ـ ونتناول قليلا من الشراب ؟ لا مانع عندى . واعتقد انك استغرقت فى النوم حتى نسيت انك لم تعد تعيش هنا

وبكل هدوء ومن غير انفعال قال لها :

ـ ليتنى لم ازل اعيش هنا . لقد وقع بينى وبين بولين شجار فظيع

ولم يدهشها قوله . لانها ظلت طوال السنوات العشر الماضية فى حيرة من امره ، ولا تستطيع أن تتصور كيفية حياتهما معا . وكانت هناك دلائل تبرز بين الحين والحين . وهاهو ذا دليل من كلامه على ان بولين لم تفهمه اطلاقا . كانت واثقة من هذا . فبولين

لا تستطيع ان تفهم مثلا كيف يمكن ان يتشاجر رجل مع زوجته اعنف شجار ، ثم ينام نوما عميقا وهو فى انتظار من يفضى اليه بموضوع النزاع . وسالته :

ـ اتعرف هى انك جئت الى هنا يابومى ؟

ـ اظنها تستطيع التخمين

ـ الا تعتقد ان هذا قد يزيد الامور سوءا ؟

ـ يزيدها سوءا ؟

وكان واضحا من لهجته ان الامور بينهما لايمكن ان تكون اسوأ مما هى الآن . واخذ يشرح لها كيف ان النزاع له اسباب ترجع الى سنوات كثيرة . فبولين تكره الريف . وهو شخصيا يشعر بالشقاء والاعياء كلما ذهب الى لندن . وحاولت مرارا ان تحمله على اتخاذ بيت فى لندن . فكان يماطلها ويعدها بذلك فى المستقبل من غير تحديد . واليوم بدأت موالها المعتاد حول هذا الموضوع . ولكن بدلا من التسويفات التى عودها عليها انفجر سخطه . وتابع حديثه فقال :

ـ والحقيقة يا مارجريت انى لم اتمالك نفسى . فالاحوال فى الشركة سيئة . فكيف يمكن فى هذا الوقت بالذات ان تطالبنى باستئجار بيت اعجبها فى شارع بوند بايجار لا يعلم قيمته الا الله ؟ انها تريد ان تنتهى بى الى ملجأ العجزة والشيوخ المعدمين !

ـ ان الامور ليست بهذا السوء

ـ بل يجب فى هذا الوقت ان نقلل النفقات لا ان نزيدها

وابتسمت مارجريت فهى تعلم ان نوبة التشاؤم تعتريه كل خمس سنوات . وفى هذه النوبة تكون اعصابه فى منتهى التوتر . ولكنها لا تلبث طويلا حتى تزول . ولذا قالت له :

ـ انت تعلم جيدا يا بومى ان حالتك المالية على وجه العموم ميسورة للغاية . وان ارباحك فى السنوات الاخرى تكفى لتغطية خسارتك فى الشركة وزيادة . فلا يجوز لك ان تتشاءم

ـ يجوز او لا يجوز ! انا لن اخضع لارهابها المستمر . واذا كانت لا تريد الحياة هنا فلها ان تذهب وتقيم فى بنسبون !

ـ هل قلت لها هذا ؟

ـ نعم

ـ وبعدئذ بدا الشجار ؟

ـ نعم

ـ اوه يا بومى . هذا كلام ما كان ينبغى ان يقال باى شكل !

ـ اتظنين هذا حقا يا مارجريت ؟

ـ طبعا . اسمع نصيحتى وعد اليها الان واصلح مابينك وبينها . لانك كنت فى غاية الحماقة

ولم يجب . ولكنه نقل الحديث الى الحديقة والازهار . وبعد برهة قال وهو يهم بالانصراف الى سيارته :

ـ يسعدنى الحضور الى هنا ويريحنى التحدث اليك بين حين وآخر . سواء رضيت بولين او لم ترض . لا استطيع الانقطاع عنك نهائيا . وساراك قريبا بلا شك ... والى اللقاء ...

وبعد ان تناولت القهوة صعدت الى الطابق الاول ، وسالت الممرضة عن حالة امها . ثم جلست بجوار فراشها . وكانت الام نائمة . فالقت مارجريت نظرة على الستائر . ولاحظت ان اوراق الحائط تحتاج الى تجديد . ولكن ما الحيلة وامها ترفض ذلك باصرار ، لانها لا تريد ان تغادر هذه الحجرة ولو ليلة واحدة ؟
وفجاة فتحت الام عينيها وقالت لها :

ـ هل عدت يا مارجريت ؟ لقد سمعت سيارتك وانت ذاهبة

ـ نعم يا امى . ذهبت الى جلوستر لزيارة بينج

ـ بينج ؟ وكيف حاله ؟

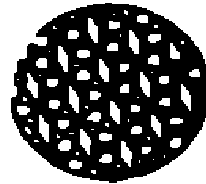
ـ على ما يرام ...

وسكتت الام . لان هذه الاسئلة كانت كافية لديها لتشعر ان من حولها على قيد الحياة . وانها لم تزل على قيد الحياة بينهم .
ونهضت مارجريت وصاحت :

ـ طابت ليلتك يا امى

ثم همست للممرضة بكلمة تشجيع . واتجهت نحو حجرتها . واذا الساقى يسرع نحوها ليقول لها ان ساقى سير أوين بنجلى تحدث الان بالتليفون ليبلغها ان السير أوين اصيب بانهيار مفاجىء

وامرت باعداد السيارة . وعندما مرت فى طريقها بباب حجرة البلياردو تذكرت رسالة شبيهة بهذه منذ ثلاثين عاما . وكان المريض يومئذ اباها



الفصل الخامس عشر

إصبع القدر

عادت مارجريت الى هاى ستاو بعد منتصف الليل مباشرة وقد اكد لها الطبيب انها لا تستطيع المساعدة فى شىء حاليا . فهناك ممرضة تسهر عليه . وستنضم اليها ممرضة اخرى . وعلمت منه ان الحالة تدل على انهيار تام بدنيا وعقليا نتيجة الارهاق الشديد . وهى حالة خطيرة لان بنية المريض الحديدية اتاحت له الصمود اطول مما يجب

وفى الدقائق القليلة التى قضتها فى حجرة المريض سمعته وهو فى حالة هذيان يطلق صيحات وحشية حول ملفورد والبلاشفة وما الى ذلك . ولولا ان الموقف بالغ الخطورة لكان مضحكا للغاية . لان تلك الصيحات كانت شبيهة كل الشبه باحاديث بينج وخطبه العادية

وقضت اليوم التالى فى بيت بينج ولكن حالته لم تتحسن . ووصل اولاده جميعا من مدارسهم ، وجاء بيتر من كمبردج . فاثار منظرهم اشفاقها . ولذا صحبت حين عودتها الى هاى ستاو بريان وافريل وروبرت . وكانت هذه هى المعونة الوحيدة التى استطاعت تقديمها

وتغير نظام حياتها فى الاسبوع التالى كله . ففى كل صباح تاخذ الاطفال معها الى جلوستر . وتقضى النهار كله هناك . وفى كل يوم تتلقى من الطبيب تقريرا لا يتغير عن حالة المريض وكيف انها لم تتغير . وفى اليوم الثامن اخبرها الطبيب ان هناك تحسنا طفيفا . وان الهذيان انقطع . وانه يذكر اسمها فى هدوء . وادخلوها اليه فتعرف عليها ؛ وتعلقت عيناه بها فى تلهف ، وهمس باسمها . ولم

تجد ماتقوله سوى مناداته باسمه . وبعد لحظة صمت سأل عن اولاده ثم طلب ان يراهم . فلما دخلوا نظر اليهم واحدا بعد الآخر ، ونمت نظراته عن اعمق الحب واصدقه . ثم خاطبهم قائلا :

ـ لم يعد هناك داع لبقائكم هنا . عودوا الى مدارسكم وسأسترد عافيتي قريبا

ـ ولم يقل اكثر من هذا وبعد خروجهم قال لمارجريت :

ـ اولاد طيبون ... كلهم . من الذى يعنى بامورهم وهم هنا ؟

ـ الثلاثة الكبار بيترو وجون وميكى يعنون بانفسهم . اما الباقون فيقيمون معى فى هاى سناو

ـ هذا فضل كبير منك يا مارجريت

ورمقها بنظرة غريبة فاحصة تحمل شيئا اكثر من الامتنان واكثر من الاعجاب

وبعد اسبوع آخر تلاشى الخطر وكان بيتر قد عاد الى كمبردج وعاد اخوته جميعا الى مدارسهم . وظلت مارجريت تاتى كل صباح فى سيارتها مهما كانت حالة الجو والمطر . وتبقى مع بينج ساعة تحدثه ان شاء حديثا ، او تقرا له فى كتاب او صحيفة . او تجلس معه فى صمت مانوس . وكان يتقدم نحو الشفاء ببطء شديد

وبمرور الايام اخذ يحدثها بغير احتجاز او تكلف عن حبه لاولاده ، وثقته فى حسن نشأتهم . وذات مرة قال لها فجاة بعد صمت طويل :

ـ كم أتمنى لو كنت بجانبهم دائما لرعايتهم

وساد الصمت بعدها طويلا . ولم تعلق على كلماته . ولكنها شعرت بان فى اعماقها كنوزا من الحنان لم تبذلها لرجل لانها لم تتزوج . وان لديها من المواهب ما كانت حرية ان تمكن به رجلا اعظم وارق ... لو انها تزوجت رجلا من طراز بينج



وبعد اسبوع ثالث بدات تخرج به للنزهة فى الايام المشمسة فى انحاء الريف المحيطة بالمدينة . وذات مرة قال لها فجاة :

ـ هناك شىء يا مارجريت يلح على خاطرى واريد ان افضى به اليك . بل يجب ان افضى به اليك . فهل لديك مانع ؟

ـ كلا ان كان لابد لك من ذلك

ومضت دقيقة قبل ان يقول لها :

ـ المسألة تتعلق باول مرة رأيتك فيها .. لقد رأيتك تتحاشين الاجتماع بي وترتبين الامور بحيث اكون دائما مع ليلى ... وبطبيعة الحال ... ايقنت انك تنفرين منى

ولم تقل شيئا . ولكن قلبها اخذ يدق دقا منيفا اختلجت له عروق دماغها :

ـ ... ولو لم اكن موقنا من هذا لكنت انت التى طلبت يدها

وبلا تردد اجابته وكان واجبها الاول أن تصدقه القول بصراحة :

ـ ولو انك طلبت يدى لقبلت !

ـ يا الهى ! اكنت تقبلينني حقا ؟

ـ نعم . وانت قلت انك تريد ان تخبرنى لتخلى ذهنك من هذه الرغبة الملحة . والآن فلنترك هذا الموضوع ولا نعود اليه ....

ـ ولكن ...

ـ ليس الآن على الاقل

وعادت به الى بيته ثم اسرعت عائدة الى بيتها . وكان القمر يتوسط السماء وهى تخترق التلال بسيارتها . وراودتها نفسها ان تنزل وتتسلق تل ستاو فى قفزات متلاحقة تعبر بها عن فرحها الظافر

اذن كان بينج يريدها هى . وقد ظنته يفضل ليلى فكتمت هواها وتعمدت ان تتحاشاه ... ولكن هذا كله تاريخ قديم . ولا فائدة من مناقشته

وفى الصباح ذهبت الى جلوستر لتراه كالعادة فبادرتها المرضة بانه نام نوما سيئا . ولكن عندما انفردت به مارجريت قال لها باسما :

ـ المرضة تظنني اسوا حالا اليوم . وهذا غير صحيح . فكل ما هنالك ان خاطرا يلح على ذهنى ولن استريح حتى اطلعك عليه

ـ تكلم اذن لتستريح . ولكن لا تجهد نفسك

ـ تذكرين حديث الامس . لقد بدا لى غريبا أننا قضينا هذه السنين كلها ، وكل منا مخدوع فى فهم شعور صاحبه . وشغلنى التفكير فى ذلك . وتساءلت هل فات اوان اصلاح ذلك الخطأ القديم ؟

ـ كلا بالطبع . لقد انتهى هذا الماضي وسنكون صديقين حميمين جدا فى المستقبل
ـ اخشى انك لم تدركى مرمى كلامى
ـ حقا ؟
ـ كلا . انى يامارجريت اسالك بصراحة هل لديك مانع الان من الزواج بى ؟
فشحب لونها لانها طرحت من ذهنها منذ سنوات كل احتمال للزواج . كانت احيانا تتمنى لو انها تزوجت : لا ان تتزوج الان . وفطن الى شحوبها فقال :
ـ اذا كنت ترين هذا مستحيلا كل الاستحالة ، فعليك ان تصارحينى الآن بذلك وساحاول ان اطرد المسالة من ذهنى . واعدك الا اعود الى اثارتها
ـ اتعنى هذا حقا يا بينج ؟
ـ بكل صدق واخلاص . هل ادهشك الطلب ؟
ـ لقد بدا مستحيلا . بالنسبة لسننا
ـ اننا لم نتجاوز سن الاهتمام بالحياة . صارحينى برايك !
ـ لم يتسع لى الوقت للتفكير . ويجب ان افكر مليا
ـ هل ستفكرين جديا حقا ؟
ـ نعم
ـ ومتى تبلغيننى رايك ؟
ـ متى وصلت الى قرار . وربما كان ذلك غدا
وتلك الليلة اخذت تسال نفسها . انه فى الخامسة والخمسين وهى فى الخمسين . وامامهما نحو عشرين سنة يتم فيها نمو الاولاد ويتزوجون ، ويجتاز فيها المصنع الازمة وتزدهر احواله . ويعود فيها بينج الى التوفيق ، ان لم يحقق فيها شيئا من آماله الضخام
انها لا تنوى ان تتحكم او توجه . ولكنها ستستخدم تاثيرها المهدىء عليه وعلى اولاده . وربما اقنعته باعتزال السياسة نهائيا . ولكن ماذا سيقول بومى ؟ ماذا ستقول امها ؟ ماذا سيقول بيتر وجون ؟ انهم سيقولون جميعا انه زواج مصلحة او زواج عقل . ولكنها تعلم ان فيه اكثر من العقل والمصلحة

وتمنت ان يظل الامر سرا بينهما بعض الوقت . فان لغط الناس وتهانيهم قد تثير اعصاب بينج وهو فى طور النقاهة . وفى الصباح زارته مانياتها المرضة ان نومه كان قلقا . ملم تعجب وايقنت أن قلقه سيزول

وبمجرد انفرادهما معا قالت له بكل بساطة وعلى الفور :

ـ انى احمل اليك جوابى يا بينج . سأتزوجك

واثلج صدرها ان ترى ابتسامته الصامتة البطيئة تتسع حتى تغمر وجهه الكبير كله ولمعت عيناه . واشرقت أساريره . فسألته :

ـ اراض انت الآن ؟

فقال متلعثما

ـ نعم . كل الرضا

ـ وكذلك انا



ومرت الايام وهى تشعر باحساس غريب مصدره ذلك السر الذى بينها وبين بينج . وانها بعد كل هذه السنوات ستتزوج اخيرا ومع تقدم صحة بينج صارت حالتها النفسية اشبه بحالة فتاة من طالبات المدارس فى عطلة

وكانت هناك اشياء كثيرة جدا يجب الاتفاق عليها واعدادها ومناقشتها . وفى الرحلات الكثيرة التى صحبته فيها بين ارجاء الريف كانت هذه الموضوعات تشغل وقتهما . وذات مرة اقترحت عليه ان يكون شهر العسل رحلة طويلة بطيئة حول العالم . وبطبيعة الحال كانت هناك صعاب لابد من تذليلها . فمن الذى سيعنى بامها اثناء غيابها ؟ ومع هذا كانت مناقشة الرحلة كأنها شىء سيحدث فعلا امرا سارا بهيجا . واشتريا الخرائط وكتب الرحلات ، ورتبا كل دقائق الرحلة وتفاصيلها . مع ان الموضوع كله لا يمكن البت فى تنفيذه الا بعد استشارة السيدة العجوز

وفى عطلة منتصف العام عاد بيتر الى البيت وجمعتهما جلسات ودية كثيرة ناقشا فيها آراءه السياسية . ولم يستطع اقناعها على طول الخط ولكنها لم تكن متحيزة ضد آرائه على كل حال . فكان دائما يبتسم ويقول لها :

ـ اعتقد انك اقرب الى الاتفاق معى
ـ انا فى الحقيقة اقرب الى الاتفاق مع كل انسان

والواقع ان هذه الآراء الجديدة اثرت فى تفكيرها فبدات تنظر الى الناس على اساس جديد . هو اساس تكافؤ الفرص وحق جميع الناس فيه

اما بقية الاولاد فكان سلوكهم نحو بينج مرضيا للغاية . لقد اصبحت الحواجز بينه وبينهم اقل . واجتراوا ليلة عيد الميلاد على الصخب . ودخل معهم بينج فى مباراة البلياردو . وبعد انصرافهم الى مخادعهم صبت لنفسها وله كاسين كبيرتين . وكانت يدها ترتجف فقال لها :

ـ اراك مستثارة الاحاسيس !
ـ بل انى سعيدة للغاية . سعادة هؤلاء الاطفال تسعدنى
ـ اعتقد انك ستتزوجيننى محبة فيهم
ـ وانت لماذا تتزوجنى اذن ؟
ـ لماذا ؟ لاننا سنكون احمقين لو مضى كل منا يعيش بمفرده بقية عمره
ـ هذا سبب وجيه ومعقول وفيه الكفاية

نعم انهما اسن من أحاديث الغرام . فالغرام خارج برنامجهما . ولكنها ليست صحبة خالية من الود والتكافل

وفى بداية العام انبات امها . فتقبلت النبا ببساطة . انها لم تعد تكترث كثيرا لما يصنعه الناس . وفى ذلك اليوم رن جرس التليفون وكان المتحدث بومى :

ـ تعالى بسرعة . حالة بولين سيئة وقد بعثنا فى طلب الطبيب

ولما وصلت الى بيت بومى وجدته هو فى حالة سيئة . كانت اعصابه على شفا الانهيار

وبعد قليل ولد الطفل . كان غلاما . ولكن بولين ماتت !

ووجدت نفسها امام موقف جديد . امام اخ عاش طول حياته معتمدا عليها . وهو الآن مترمل له طفل يتيم . وليس لهما فى الحياة من احد سواها

كان بومى اشبه بطفل مسلوب الارادة لابد أن تلازمه وترعى

حركاته وسكناته وتظعمه وتهدهده وتكفكف عبراته . وصحبته معها ليقيم في هاي ستاو هو وطفله . وفي هاي ستاو ناب الى عاداته القديمة واطمئنانه القديم . وجعل يقول لها :

ـ لا ادري ماذا يكون مصيري لولاك يامارجريت

وعندما جاء بينج للعزاء كانت نظرة واحدة الى عينيها كافية كي يفهم كل شيء . كي يفهم ان واجبا آخر قد استأثر بها دونه في آخر لحظة . واغضى وهو يشد على يدها بحرارة . فقالت همسا . بصوتها الهادىء المطمئن :

ـ سنكون دائما صديقين حميمين . ينبغي أن يكون هذا كافيا ..

وهز راسه ولم يتكلم . فقالت :

ـ يجب يا بينج . لابد ..

فابتسم ابتسامته البطيئة وقال :

ـ نعم . لابد ..

ـ ولابد ايضا ان تستعيد صحتك لتشرف على العمل . فحالة يومى لاتسمح له في الوقت الحاضر بنشاط يذكر

فازدادت ابتسامته اتساعا وهو يقول لها :

ـ كلانا يجب أن ينهض ويواصل الكفاح . فمن سوانا يستطيع ؟



روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي



هذه الرواية

وراء الموضوع القصصي فى هذه الرواية العاطفية الرزينة تصوير انسانى واجتماعي يصور صراع الاجيال ويصور تاثير الزمن فى آمال الناس وأحلامهم وعواطفهم ويصورتطور العقلية الاجتماعية من الفردية المسرفة ، والاستغلالية المجحفة ، وعدم الاكتراث اللاهي عن الاحداث ، الى احساس بحق الغير ، وحق الجماعة . حتى يقف الابن أمام أبيه موقف الخصم فى سبيل تغير الاوضاع بما يتفق وحقوق الانسان

وقد استطاع جيمس هيلتون أن يصور ببراعة كبيرة كل هذه الامور من غير أن يظهر اتجاهه الى غرض معين من الرواية . فكانت في واقعيتها وموضوعيتها قطعة من الحياة يمتزج فيها التحليل النفسي بالتحليل الاجتماعي وتبدو الشخصيات فى اطارها الطبيعي نماذج متباينة للسلوك العاطفى الطبيعي ، الذى تبرز الحوادث وأزمات الحرب والمجتمع والوجدان خصائصه من غير مبالغة

ويعتبر فن جيمس هيلتون مؤلف رواية الافق المفقود وغيرها من الروايات العالمية من أشهر الروائيين المعاصرين واكثرهم براعة وتوفيقا في التعبير عن ازمات انسان القرن العشرين وتقلب أحواله . وهو لا يخلو من نزعة تصوفية تتضح في الدور الذى يؤديه القدر فى حياة أبطاله . وهو مؤمن بالانسان وبقدرته على التكيف . وبأن اصبع القدر توجه الانسان بعد كل شيء الى ما فيه خيره باعتباره نوعا راقيا فى مملكة الخليقة

المؤلف

* اشتغل بالصحافة وهو طالب في جامعة كامبردج
* وبعد تخرجه ظل يعمل فى الصحافة فى ...اب الادب والنقد
* ثم تفرغ لكتابة القصص والروايات بعد ...وع شهرته
* كان من اهم رواياته «الافق الضائع» التى اعتبرت من الدعائم القوية لشهرته العظيمة ...قد نقلتها سلسلة ...روايات الهلال فى نوفمبر سنة ١٩٥٥ . واخرجت ... السينما ونالت نجاحا ...يم
* كذلك اخرجت فى السينما روايته « وداعا مستر تشبس » التى ...ت من خير الروايات السينمائية

عذراء وثلاثة رجال